٤

كتاب التحرير السياسى

آسيا المعاصرة

الفعل وردّ الفعل

الجزء الثالث

تأليف :
البروفسور روميين
ترجمة :
سامى حسن سرى

٤
كتاب
التحرير
السياسى

آسيا المعاصرة
الفعل وردّ الفعل

تأليف :
البروفسور روميين
ترجمة :
سامى حسن سرى

سلسلة كتاب التحرير السياسى

تصدر عن دار التحرير
للطبـــع والنشـــر

رئيس مجلس الادارة
كمـــال الحنـــاوى

اشراف وتقـــديم
عبد العزيز فهمى

تصميم الغلاف بريشة
الفنان حسن فؤاد



الريس جمال عبد الناصر

ان الاستعمار تنكر لكل عهوده التى قطعها على نفسه خلال الحرب العالمية الاولى وكانت الامة العربية تتصور انها قريبة من يوم الاستقلال ويوم الوحدة .

ان الأمل فى الاستقلال تلقى ضربات قاسية ، فان البلاد العربية قسمت بين الدول الاستعمارية وفق مطامعها بل وفق نزواتها واخترع الاستعمار كلمات مهينة لتغطية الجريمة التى اقدموا عليها ككلمات الانتداب والوصاية .

***

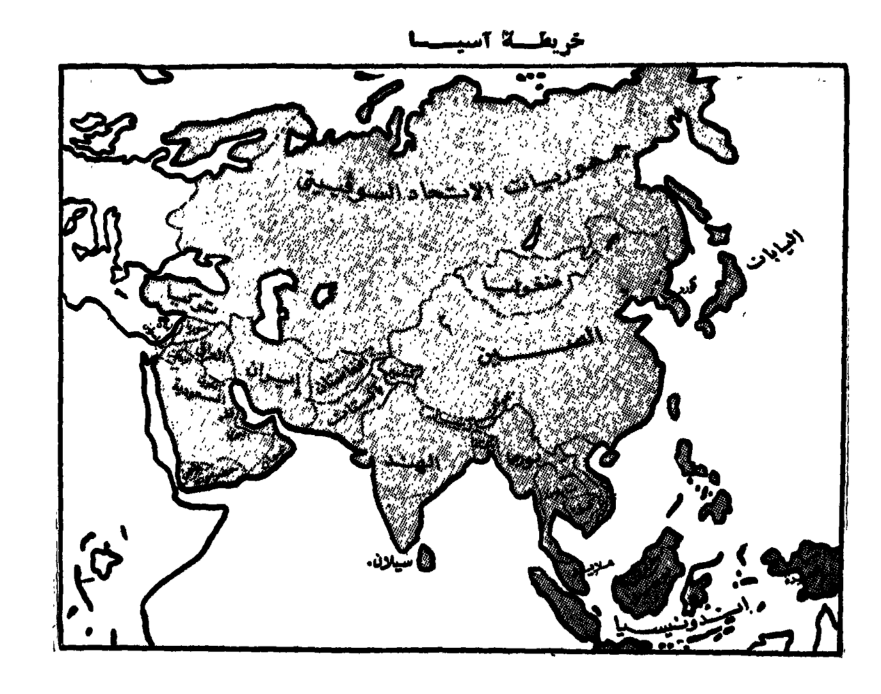
ان سنوات طويلة سوف تمضى قبل ان تنسى الأمة العربية مرارة التجربة التى عاشتها فى هذه الفترة محصورة بين الارهاب والاهانة .

ان الأمة العربية خرجت من هذه التجربة باصرار عميق على كراهية الاستعمار وعلى هزيمته ، انها خرجت بدرس عظيم الفائدة عن حقيقته ، ان الاستعمار ليس مجرد نهب لموارد الشعوب وانما هو عدوان على كرامتها وعلى كبريائها ..

(الميثاق الوطنى — ٢١ مايو ١٩٦٢)

الفهرس

خريطة آسيا


جمهوريات الاتحاد السوفيتي
اليابان
كوريا
الصين
ايران
سيلان
اندونيسيا

تقـــديم

بقلم عبد العـزيز فهمى

فى الجزء الثانى من كتاب « اسيا المعاصرة » الذى صـدر بعنوان « افول الغرب » أوضح المؤرخ « رومين » كيف ان الحرب العالمية الاولى فتحت عيون الشعوب الآسيوية على طبيعـة النظام الاستعمارى وما يخلقه هذا النظام من منافسات دوليـة على مناطق النفوذ والاستثمار والاستعمار ، وما يتبعه من سياسـات التحكم والسيطرة والاستبداد •

ورغم أن بعض الدول الاستعمارية انتصرت على بعضها الآخر ، فان هذا الانتصار لم يحجب الحقيقة الأساسية العميقة ، وهى افول النظام الاستعمارى وبدء انهياره وتدهوره ، وكان من أهم العوامل الكبرى ذات الدلالة الواضحة على هذا الافول والانهيار والتدهور ، قيام الثورة الاشتراكية الكبرى فى روسيا القيصرية ، وتحول تلك الدولة الضخمة بمساحتها الكبيرة الممتدة بين القارتين الأوربيـة والآسيوية وبجموعها الهائلة من السكان وبمواردها العظيمة فى جميع المجالات من النظام شبه الاقطاعى والنظام الرأسمالى والنظام الامبراطورى الى أول دولة اشتراكية فى العالم •

لقد كان قيام هذه الدولة الاشتراكية الأولى فى العالم يعنى تقوض ركن أساسى من أركان النظام الاستعمارى •

ومع قيام اتحاد الجمهوريات السوفييتية الاشتراكية ، وما تبع ذلك من وقوع الحرب الأهلية بين العناصر والطبقات الرجعية وبين القوى الثورية ، وحرب التدخل الاستعماري الذى اشتركت فيه دول متعددة من أوربا الغربية ، كانت الثورة العربية والثورة الآسيوية تشق طريقها الى الظهور وسط طريق وعر أقامت فيه الدول الاستعمارية السدود والعراقيل ، وتعرضت ثورات الشعوب العربية والآسيوية لكثير من المؤامرات والخطط العدوانية بقصد منعها من بلوغ أهدافها القومية والاجتماعية .

ولقد اوضح المؤرخ « رومين » كيف أن قيام اتحاد الجمهوريات السوفيتية الاشتراكية يفضح أسرار اتفاقية « سايكس بيكو » التى أرادت بها بريطانيا وفرنسا وروسيا القيصرية (قبل قيام الثورة الاشتراكية) قد ساهم بطريقة عملية فعالة وأخاذة فى تعريف الشعوب العربية بحقيقة أعدائهم الاستعماريين ، وحقيقة مايدبرون للوطن العربى من خطط التقسيم والسيطرة والتحكيم والعداء للوقمية العربية ، وفى تعريف الشعوب الآسيوية كلها بحقيقة الأوضاع والاتجاهات الثورية التى خلقتها ثورة اكتوبر سنة ١٩١٧ فى روسيا .

وفى هذا الكتاب « الفعل ورد الفعل » يتقدم المؤرخ « رومين » الى مرحلة جديدة منمراحل النضال الآسيوى عامة والعربى خاصة فيكشف بطريقة علمية دقيقة كيف أن أفعال الاستعماريين ضد شعوب القارتين الآسيوية والافريقية كان لا بد أن تقابل بردود ايجابية من هذه الشعوب .

انه يوضح لنا كيف بدأت الثورة العربية سواء من الناحية الوطنية أو من الناحية القومية تواجه خطط الاستعماريين وتقاوم مشروعاتهم العدوانية ، وكيف أخذت الحركات الاستقلالية العربية تشق طريقها بقوة ، وكيف انتكست ثورات مصر والبلاد العربية

بعد

بمؤامرات الاستعماريين والملكيين والطبقا الرجعية الموالية للاستعمار والامبراطورية البريطانية والامبراطورية الفرنسية .

وفي الوقت نفسه تناول في هذا الجزء كيف تحولت اليابان من دولة اقطاعية الى دولة رأسمالية كبرى ، وكيف استطاعت أن تدمج أساليب الاقطاع والرأسمالية في الزراعة والصناعه .

وهو يلقي أضواء ساطعة على بدء الحركه الاستقلاليه والثورة الاجتماعية في كل من تركيا وايران وافغانستان ، ويوضح بصفة خاصة كيف أن البترول كان ومايزال أحد الأسباب الهامة التي جعلت الدول الاستعمارية تتآمر على ايران وتعمل على ابقائها في أوضاعها الاجتماعية المتخلفة التي لم تزل قائمة فيها الى الآن ، وان كان هذا لا يحجب الحقيقة الواقعة وهي أن ثورة الشعب الايراني على هذه الأوضاع المتخلفة وما يقترن بها من أساليب استغلالية واستبدادية قد بدأت منذ فترة الحرب العالمية الاولى ، بل وقبلها أيضا ، ولا تزال قائمة حتى الآن ولا بد لها من أن تنتصر آخر الامر .

ولسوف يتضمن الجزء الرابع من سلسلة « آسيا المعاصرة » الحديث عن الثورات المماثلة في كل من الصين والهند .

وانه ليعنينا أن نلفت النظر دائما الى أن المنهج الذي يسير عليه الأستاذ المؤرخ « رومين » في كتابه هذا الكبير تقوم على اعتبار القارة الآسيويه وحدة كاملة تتجاوب كلها بأصداء الثورة وتتشابه بلدانها من حيث الظروف والأوضاع ومن حيث الأفعال التي تعرضت لها من جانب الاستعماريين ومن حيث ردود الأفعال التي كان لا بد منها لمواجهة النظام الاستعماري وتوجيه الضربات اليه سعيا الى التخلص منه وتصفيته من تاريخ الانسانية كلها .

عبد العزيز فهمي

١

اليابان

فى هذه الفترة كان الاتحاد السوفييتى هو الدولة التى تعتريها تغييرات كبيرة الا أن اليابان كانت هى الدولة التى تمكنت ، عن طريق توسعها العسكرى والاقتصادى ، من احداث أكبر تغيرات فى العالم .. واذا أراد الانسان أن يفهم تاريخ العالم فى الفترة ما بين الحربين وبصفة خاصة تاريخ آسيا - ففى أيامنا هذه من المستحيل أن نفصل بينهما - وجب عليه أن يتفهم حقيقة العدوان اليابانى ، والأساس الذى يقوم عليه ومنابعه وخصائصه المميزة ، وأن يتفهم - ان أمكن - شخصيته الخاصة الغريبة .

أولا وقبل كل شىء ، ما هى الأشياء التى لم يتصف بها هـذا العدوان ؟ لقد راجت وانتشرت سلسلة كاملة من الاساطير والافكار التى تزايدت خلال الحرب العالمية الثانية .. وهكذا لم يكن التوسع اليابانى نتيجة لخاصية فطرية ، أو بسبب ميزة فى القومية اليابانية غير قابلة للتغير . ان النظرية الجذابة ، بل الخطيرة ، القائلة بأن شعوبا معينة لها طبيعة عدوانية وأن شعوبا أخرى غير عدوانيـة بطبيعتها ، سوف يتضح زيفها اذا ما درسنا التاريخ ككل ، ولم نحصر انفسنا فى دراسة فترة محدودة ... ان كل دولة نعرفها فى التاريخ مرت بفترات توســع وعدوان ، وهذا ينطبق عـلى الأندونيسيين بقـدر ما ينطبق على الدانمركيين أو المغـول أو الأمريكيين ، وهو ينطبق على الروس بقدر ما ينطبق على الهولنديين والعرب والمصريين والبريطانيين ...

والواقع ان الطابع العدوانى اليابانى يصعب تفسيره ، كمـــا يصعب تفسير عزلة اليابان فى القرون الماضـــية .. ان الاسباب الحقيقية لهذه التغييرات والوقت الذى حدثت فيه تلك التغييرات ، تعتبر ـ فيما هو متعارف ـ أمرا يحيطه الغموض ، وكما ان عالم الزراعه يستطيع ـ دون معرفة خاصيه وسر نمو احد النبـاتات ـ الاستمرار فى البحث عن الكيفية التى تصدر بها ردود الافعال عن هذا النبات بتاثير الحرارة والجفاف والمطر والسماد الصناعى ، كذلك نجد عالم التاريخ يستطيع دراسة ردود الافعال الصادرة عن بلد ما تجاه المواقف المتغيرة وفى أوقات مختلفة .. انه يستطيع القيـــام بمحاولة لادراك السبب الذى يجعل البنيان الداخلى لدولة ما يتغير وكيف تؤثر هذه التغييرات فى تاريخها .. وفيما يتعلق باليـابان علينا أن نتساءل عن السبب الذى دفع اليابان الى الزحف علـــى البلدان الاجنبية بجيوشه ومنتجاتها ..

ومن الطبيعى أن نتناول هنا فى ايجاز أهم عامل من بين العوامل الكثيرة الشديدة الاختلاف التى أثرت فى اليابان فى هـــذا القرن وخاصة فى الفترة من ١٩١٩ الى ١٩٤١ .

أولا علينا أن نلحظ الرابطة الغريبة التى تصل بين البنيـــان الاجتماعى الاقطاعى والتكنولوجيا الحديثة .. وهى صلة متفجرة كما اتضح فى ظروف كثيرة ..

وماذا يعنيه لفظ « اقطاعى » فى هذه الرابطة على وجه التحديد أو بصورة تقريبية على الأقل ؟.. ان « الاقطـــاع » و « اقطاعى » لفظان ينتميان الى العصور الوسطى فى أوروبا .. وبمعنى أوسع يمكننا أن نفسر لفظ « اقطاع » على النحو التالى : فى القرن الثامن

يبدأ الملوك وخاصة ملوك فرنسا ، يسلمون نبلاءهم أجزاء من ضياعهم لتصبح هذه الأجزاء اقطاعيات ، ومقابل ذلك كان على النبيل أن يخدم فى الجيش الملكى باعتباره فارسا .. وفى القرون التى تلت ذلك القرن تطور هذا النظام بصورة تعدت غرضه الأصلى ، وفى القرن الرابع عشر انتشر ذلك النظام الى ابعد مدى فى مناطق عديدة لدرجة أن النبلاء والكونتات والدوقات والبارونات المستقلين استطاعوا ان يطغوا بنفوذهم داخل قلاعهم القوية على نفوذ الملك نفسه .. وكان النبيل يملك سلطة مطلقة بصفة عامة على المزارعين الذين كانوا من قبل احرارا وكذلك ممتلكاتهم وأصبح المزارعون - ايثارا للسلامة - جنودا لسيدهم ، بل وزيادة على ذلك أصبحوا رعايا له من الناحيتين الاقتصادية والقانونية ، وفى كل النواحى الاخرى ، أكثر من كونهم رعايا للملك ..

وعندما عقد الملك تحالفا مع المدن التجارية والرأسمالية الصاعدة التى تعارض النبالة (وقد تم ذلك غالبا فى القرنين الرابع عشر والخامس عشر) ، عندئذ فقط أصبحت بلدان أوروبا الغربية دولا قومية فعلا .. وكثمرة للتفكير الرأسمالى للبرجوازيين فى المدن ، بدأت أفكار معينة فى النضوج ، وهى ما نعتبرها الافكار الأساسية للديموقراطية الحديثة .

فان كانت تلك هى الصورة التى سارت عليها الأحداث فى غالبية مدن أوروبا الغربية ، فان التطورات التى حدثت فى الأماكن الاخرى ليست مماثلة لها .. ففى ألمانيا ، مثلا - وهى صورة أخرى محيرة من صور التاريخ - بقى النظام الاقطاعى على حاله تماما .. وفى القرنين السادس عشر والسابع عشر كانت الامبراطورية الألمانية تحتوى على ٣٠٠ مدينة وولاية حرة تدين بالولاء الاسمى

للامبراطور .. وقد كان الكثيرون من الامراء الالمان الى ما قبل قيام الثورة الامريكية (١٧٧٤ - ١٧٨٣) يمكنهم السماح لأنفسهم بنقل مواطنيهم كجنود للعمل مع البريطانيين .. وفى مناطق المانيا الشرقية الزراعية ، لم يتم تحطيم سلطة كبار ملاك الأرض الاقطاعيين الا بعد الاحتلال الروسى عام ١٩٤٥ ، بعد أن ظلوا قرونا طويلة يمثلون دولة داخل الدولة .. وكما حدث فى اليابان لعب الخليط الخطر المكون من الاقطاع والتكنولوجيا الحديثة دورا فى تاريخ المانيا الحديث ، ونعنى به تحالف النبلاء البروسيين مع بارونات مناطق الرور الصناعية ..

وفى خارج أوروبا طبقت الفكرة الاقطاعية بعد نهاية مرحلة العصور الوسطى ، فى كثير من المجتمعات المماثلة وخاصة فى آسيا .. وعبارة الاقطاع تستخدم اليوم بصفة عامة لوصف الكيان الاجتماعى الذى تعيش فيه أغلبية ساحقة من المشتغلين بالزراعة يحكمهم من الناحيتين الاقتصادية والسياسية أصحاب الأراضى الارستقراطيون الذين تقدس التقاليد أوضاعهم وحقوقهم التى تعتبر بطريقة أو بأخرى أمرا طبيعيا للغاية .

وفى عام ١٨٥٤ ، عندما حصلت اليابان المعزولة لأول مرة على فوائد الرأسمالية التجارية والصناعية الغربية ، كان نظام الأراضى ما زال ينتمى الى العصور الوسطى ، وكانت اليابان دولة لا تملك الاسحة النارية أو المصانع .. وان يحكمها ثلاثة آلاف من أصحاب الاراضى الاقطاعيين الذين ضموا صفوفهم لمدة ثلاثة قرون تقريبا على أيدى « الشوجان » أى القادة العسكريين من أسرة طوكوجاوا التى سبت من الامبراطور اختصاصاته فيما يتعلق بالامة ونظام

النبالة .. ولفظ « شوجان » معناه أصلا « قائد فى معركة » .. وفى العصور الوسطى عندما كان كل النصف الشمالى من اليابان يقطنه « الاينوس » ، وهم السكان الاول للجزر اليابانيـــة ، كان منصب القائد الأعلى للاينوس منصبا اقطاعيا هاما .. الا أن المنصب الذى كان يعد منصبا عسكريا محضا ويعرف باسم « ساى - ايى - تاى شوجان » ، ومعناه قائد ضد البرابرة ، فقد تحول الى منصب سياسى ..

ويمكن أن نقارن « الشـــــوجينيت » ، وهو مقر الوزير الأول » بمقر عمدة القصر فى الامبراطورية الفرنجية أوائل العصور الوسطى باوروبا .. حوالى القرن الثانى عشر كان الشوجانات قد امتلكوا سلطة فعلية تقارن بسلطة الامبراطور نفسه ..

والآن يجب علينا أن نشرح كلمتين لا نســــتطيع أن نتجنب ذكرهما عندما نتحدث عن نهضة اليابان الحديثة .. فكلمة «دايميو Daimio» تعنى نبيل عظيم .. وكما هو الحال عند البـاروبات الاقطاعيين فى أوروبا ، كان الدايميو يحكم اقطاعيته الخاصة به ، وينظر الى الامبراطور باعتباره سيده الاقطاعى .. اما الساموراى Samurai فهم صغار النبلاء وهم يماثلون « الأعيان » الانجليز .. وكانوا فى الغالب أيضا من ملاك الاراضى ، ولكن على نطاق اضيق ، وكانوا من الناحية العسكرية تحت ســــلطة الدايميو .. وكان الساموراى الذى لا يملك أرضا يحصل على قطعة أرض من ســيده الدايميو مقابل خدمته .

وكان الامبراطور هو الذى يتولى تعيين شـــــوجانات أسرة طوكو جاوا - أى القادة العسكريين لهذه الاسرة - كما كان يحدث

بالنسبة لشوجانات الاسر الاخرى السابقة ، الا أن وضعهم اكتسب صفة الدوام بسبب الحروب الاقطاعية ٠٠ وقد بدأ ظهور أسـرة طوكوجاوا منذ معركة سيكيجاهارا الكبرى عام ١٦٠٠ ، وتم ارساء البنيان السياسى الجديد لاسرة طوكوجاوا على أساس متين ، بمكن للمرء أن يطلق عليه اسم الاقطاع المركز ٠٠ وكانت قرية بيـدو المشهورة بالصيد - - وهى الآن طوكيو - هى العاصـمة الجديدة التى تبعد كثيرا عن العاصـمة الامبراطورية ، كيوتو ٠٠ وكان جميع اصحاب الأراضى الاقطـاعيين مجبرين على أن يؤدوا يمين الولاء أمام الشـوجان واخذ الجواسيس يندسـون للكشف عن المؤامرات ، كمـا كانت الكثيرات من زوجات الدايميو تعيش مع أطفالهن فى مساكن قريبة من الشوجان باعتبـارهن رهائن ٠٠ وبالاضافة الى ذلك قسمت النبالة الى طبقتين ٠٠ فهناك النبالة القـديمة التى قاتلت فى معركة سيكيجاهارا دفاعـا عن أسرة طوكوجاوا ، والنبالة الحديثة التى هزمت فى هذه المعركة ٠٠ وتم اغراء النبالة القديمة ، عن طريق منحها كل أنواع الامتيازات ، لكى تقوم بمراقبة المعارضين السابقين ٠

وفى عام ١٦٤٠ كانت عزلة اليابان قد تمت ٠٠ ولكن هـذا لا يعنى أنه لم يكن يوجد توتر فى البلاد ٠٠ فقد قام الكثيرون من أعضاء أسرة طوكوجاوا وغيرهم من المساندين للنبـالة القديمة ٠٠ وخاصة الساموراى الذين لم يكن لديهم الشىء الكثير ليفعـلوه ، بترك الأرض والانتقال الى المدن وأصبحوا أساسا لطبقة اقطاعيـة برجوازية جديدة من التجار ٠٠ وما كان يبدو مجرد تطور اقتصادى ٠٠ وهو ما كان بمثابة جرثومة الرأسمالية المبكرة ، كان سببا فى قيام ثورة اجتماعية داخلية كما حدث فى أوروبا ٠٠ وعنـدما حلت

العملة المعدنية محل الأرز كوسيلة للتبادل ، كا ن ذلك ببساطة علامه ظاهرة على أن ملكية الارض لم تعد هى وحدها المقياس الاجتماعى واصبحت حيازة المال لها من الأهمية مثل ما لامتلاك الأرض والحبوب ، كما أصبحت تعادل فى أهميتها أيضا لقب النبالة ، والأصل الارستقراطى ٠٠ وبدا الاختلاط الاجتماعى ، بما فى ذلك التزاوج ، بين الطبقات يقوض البنيان الاقطاعى الخالص فى البلاد ٠

أما فيما يتعلق بالنبالة الجديدة وخاصة فى جنوب غربى اليابان فان البنيان القديم ظل على حاله دون أن يمس ، فحتى عام ١٨٧٠ مثلا كان الساموراى يحصلون على قيمة مبيعاتهم أرزا ٠

واذا اطلع المرء على الوضع الذى كان فيه النبلاء أصحاب الأراضى ، وخاصة صغار النبلاء فى الجنوب الغربى ، حيث كانوا مهددين بصورة متزايدة بالرأسمالية الصاعدة التى كانت تهدد أيضا كل عهود الاقطاع والعصور الوسطى وأحاسيسها ٠٠ وكل الاقتصاد الاقطاعى ، فانه يستطيع أن يفهم بسهولة الاحداث التى وقعت فى الفترة ما بين عامى ١٨٥٤ - ١٨٦٨ ، وعندما ظهرت وحدة من الأسطول الامريكى عام ١٨٥٤ كانت البلاد فى ذلك الوقت تعيش فى حالة غليان ٠٠ وكان ملاك الأراضى فى الجنوب الغربى الذين ينتمون الى عائلات مثل ساتزوما وتشوشو ، يمكن مقارنتهم فى سلوكهم بأصحاب المزارع الامريكيين أثناء الحرب الأهلية ٠٠ فهم من أصحاب الأراضى الاقطاعيين الذين كانوا قد عقدوا العزم على استخدام التهديد من الخارج لاشعال نار الثورة ضد سيطرة عائلة الطوكوجاوا ولتدعيم مركزهم الخاص ٠٠ وكان الفلاحون الذين يعملون فى أراضيهم مزودين بالبنادق بينما لم يكن جيش

الشوجان يملك سوى سيوف الساموراى ، وكانت النتيجة معروفة تماما ، وعندما استرد الامبراطور عرشه عام ١٨٦٨ ، كان واضحا أنه أصبح امبراطورا لقسم كبير من أصحاب الأراضى الارستقراطيين .. وفى عام ١٨٧١ خضع كل أصحاب الأراضى الاقطاعيين للامبراطور الا أن الدايميو ظلوا سادة الأرض واستمروا فى السيطرة على الفلاحين كما كانوا من قبل ، وهكذا رأينا كبار أصحاب الأراضى فى الجنوب الغربى يصبحون هم والساموراى التابعون لهم قادة ووزراء للجيش والاسطول ، كما امتلك بارونات أسرة طوكوجاوا المصانع والمشروعات التجارية فى اليابان الحديثة .. وكانت القوة العسكرية القومية التى شكلت عام ١٨٧٢ تعتبر من ناحية بمثابة دفاع ضد الثورات المنتظرة من جانب الفلاحين ، ومن ناحية أخرى تعتبر أساسا بنيت عليه دولة رهيبة داخل الدولة .

والعامل الضخم الآخر فى تاريخ اليابان الحديثة هو الزراعة .. ففى أوروبا الغربية وفى أمريكا الشمالية نشأت صناعة واسعة النطاق بعد أن تحرر الفلاح بصفة عامة ، وفى الولايات المتحدة بصفة خاصة ، من قيود العصور الوسطى ومن الأساليب التى كانت متبعة فى العصور الوسطى .. وفى اليابان قامت الرأسمالية على الاقطاع الزراعى ، وبصفة عامة يوجد لدى الرأسمالية ميل لاعتبار الزراعة فرعا من الصناعة يمكن استثمار رؤوس الأموال فيه .. والاقطاع يتطلب ضرائب وايجارات من الفلاح ولكن هذه الأموال لاتستثمر .. و فى الدول الغربية قامت الجهود لدفع الزراعة الى التقدم اجتماعيا واقتصاديا مثلما حققت الصناعة من نواحى التقدم ، أما فى اليابان فان أصحاب الأراضى النبلاء ورجال الصناعة حرصوا على جعل الفلاح فى أدنى حالة ممكنة وفصله عن الطبقات

الآخرى فى المجتمع .. ولم يكن مسموحا للعنـــاصر « الخطرة » - كالطلبة وعمال المدن مثلا - بالاتصـــال بالجيش .. وكانت الفتيا الفلاحات اللاتى تعملن فى المصانع تحتجـــزن ، فى فترات ما بين الحروب داخل ثكنات وتجرى مراقبتهن كما لو كن من نساء الحريم .. كما أن أية تغييرات كبيرة لم تكن لتحـــدث الا تحت ضغط الاضرابات ..

ان دولة مثل الولايات المتحدة أمكنها ، أول الامر على الاقل ، أن تؤسس انتاجها الآلى الضخم على السوق الداخلية المستمرة فى النمو .. كما ان دولا مثل فرنسا وبريطانيا وهولندا كان لديهـــا بالاضافة الى ذلك مستعمراتها ..

وعندما بزغت اليابان عام ١٩١٩ كدولة كبرى بعـد الحرب ، لم يكن لديها لا السوق الداخلى ولا المســـتعمرات .. ان مزارعى العصور الوسطى الصغار لا يشكلون سوقا للصناعة الواســـعة النطاق ، وخاصة عندما تعمل الطبقات الحاكمة ، بسبب خوفهـــا العميق من الثورة ، للابقاء على مستوى الفلاح فى أدنى وضـــع ممكن ..

وسوف نتعرض للفلاح مرة أخرى عندما نتناول تاريخ اليابان الداخلى فى الفترة ما بين ١٩١٩ و١٩٤١ .. ولكن علينا أن نذكر قبل ذلك مسألتين أخريين كمقدمة ..

لقد حاولت حكومات يابانية عدة أن تبرر تطلعاتها التوسعية بالزيادة الكبيرة فى عدد سكان الجزر اليابانية .. وقد قوبل هذا التبرير بهجوم شديد فى دوائر غربية معينة .. صحيح ان الزيادة

فى عدد السكان كانت حقيقة واقعة الا أنه توجد حقيقتان أخريان لم تذكرا :

اولا ـ هنا ك الصلة بين زيادة عدد السكان من ناحية ، والاقطاع الزراعى والافتقار الى الآلات الزراعية من ناحيـــــة أخرى .. ان الاقتصاد الزراعى الذى يفتقر الى الآلات يعنى مزيدا من الكد والتعب .. وهذا يعنى بالنسبة للفلاح اليابانى ، كما هو بالنسبة لعائلات الفلاحين فى كل مكان ، عددا كبيرا من الأطفال .

ثانيا ـ فى عصر اسرة طوكوجاوا أمكن تحديد عدد الأطفـــال بالاجهاض وواد الأطفال ، وهى طريقـــة تسمى بلغة الفـــلاحين « مابيكى » ومعناها ، تقليل العدد .. لا أنه عندما وجدت فيما بعد رغبة عامة فى تحديد النسل عملت الحكومات نفسها التى جعلت الزيادة فى النسل حجة لاعمالها العسكرية التوسعية على منع أية دعاية لتحديد النسل ..

وبالنسبة للتوسع اليابانى تعتبر هذه عوامل هامة : قيام بنيان اجتماعى ظل فى خصائصه اقطاعيا مع استخدام التكنولوجيـــا الحديثة ، وجود الاقتصاد الاقطاعى غير الآلى فى القرية ، والعامل الثالث هو السرعة الخارقة التى يتزايد بها عدد السكان وهى تعتبر فى نظر اليابانى العادى بمثابة مبرر لغزو المناطق الواقعـــة وراء الحدود ..

ان تلك العوامل الثلاثة لا يمكن معالجة كل منها على حدة .. انها تشكل كلا يعتبر جزءا من وضع تاريخى محدد الا انه ما زالت هناك ثلاثة ظواهر اخرى تفسر لنا التوسع اليابانى .. ان القـــادة الاقطاعيين للجيش والاسطـــول اليـــابانيين كانوا يشكلون بين

الحربين العالميتين دولة داخل الدولة ، وكان هذا الوضع ينطوى على خطر بالغ نظرا لأنه لم تكن فى اليابان اى صورة من صـــور الديموقراطية ، الا أن البلاط الامبراطورى والنبالة العسكرية كانا - بسبب تلك الخاصية الاقطاعية - وبسبب ما تعرضـــا له من أحداث فى الماضى ، يكنان شعورا عدائيا واضـــحا للراسمالية .. وأهمية ذلك تكمن فى أنه نظرا لوجود مثل هذا التفكير المعـــادى لرأس المال فانه يمكن كسب تأييد عدد ضخم من العمال والفلاحين لسياسة العدوان .. وقد اتضح عام ١٩٣٧ ، عندما هدد الفلاحون والعمال بالثورة ، أن هذا الاتجاه المعادى للراسمالية قد عفا عليه الزمن وهو اتجاه رجعى وغير اجتماعى ، ولا ينطوى على أى استعداد لتحقيق تحسن فعلى فى معيشة جموع الفلاحين . كما أن صناعـــة الذخيرة الراسمالية تتحكم وتتغلب على الاتجاه المعادى للراسمالية .
وكان الرد من جانب الجيش ومن جانب الاحتكارات و « اللبراليـــة » هو فرض الدكتاتورية الفاشية ، التى تعد الوسيلة التقليدية التى تلجأ اليها الراسمالية عندما تتهددها أزمة ما ..

ان الحكام اليابانيين ، الذين لم يعودوا يتحملون اســـتمرار هذا الوضع فى بلدهم ، حولوا أنظارهم الى الدول الآســـيوية والى الجزر الغنية فى أندونيسيا والفيليبين وهاواى .

وهكذا نصل الى العامل الخامس .. ان اليابان لم تكن لها أية مستعمرات ذات أهمية .. وفى عام ١٩١٩ كانت اليـابان تمتلك سخالين وكوريا وفورموزا وسلسلة من جزر المحيـــط الهادى .. ولكن عندما نقارن ذلك بمستعمرات دول كبريطانيا وفرنســـا وهولندة ، فاننا نجده قليلا نسبيا .. ولم تفكر اليابان فى اتخاذ

الحل الذى توصلت اليه الولايات المتحدة ، التى لديها مستعمرات قليلة من الناحية الرسمية ، ولكنها تمكنت بمساعدة استعمار الدولار أن تربط اليها أجزاء كبيرة من أمريكا الوسطى وأمريكا الجنوبية ، ولم تبدأ اليابان ، مثلها فى ذلك مثل ألمانيا وايطاليا ، تفكر فى المستعمرات الا عندما تم تقسيم غالبية مناطق العالم ‥ وقد سعت ألمانيا ، لافتقارها الى المستعمرات ذات القيمة الممتازة ، الى الاستحواذ على منطقة اللورين الغنية بالحديد الخام ، فى غرب نهر الراين (١٨٧٠ و١٩١٤ و١٩٤٠) وكانت تحلم بانشاء « أمبراطورية ألمانية » تضم أوكرانيا الغنية بالفحم والحديد ، ـ ويا للغرابة ـ فهى لا تعتبر ألمانية الى حد بعيد ‥ وكذلك كانت ايطاليا فى عهد موسولينى تحلم باعادة مجد امبراطورية البحر الابيض المتوسط الرومانية ، وتمكنت ايطاليا من أن تسيطر بعض الوقت على الشمال الافريقى الذى كان سهل المنال ‥ وبصورة مماثلة وجه حكام اليابان أنظارهم فى نهم نحو شرقى آسيا ونحو المحيط الهادى ، وأخذوا يتطلعون الى السوق الضخمة التى تتيحها الصين لتصريف منتجات اليابان من القطن والحديد والفحم ، ومنتجات الملايو من المطاط ، ومنتجات أندونيسيا من الصفيح والمطاط والبترول ‥

وبالاضافة الى ذلك ـ وهذا هو العامل السادس ـ كانت السياسة اليابانية والعقلية اليابانية معادية للغرب ، ونتج عن ذلك أن اليابان وجدت فى المناطق المستعمرة وشبه المستعمرة فى شرقى آسيا أرضا خصبة لبث دعاياتها بعض الوقت ‥ وفى الوقت نفسه كانت اليابان الرسمية معادية لروسيا ومعادية للاشتراكية بوجه عام ‥ ونتج عن ذلك ، من ناحية ، تباطؤ من جانب اوروبا الغربية

وامريكا فى معارضة التوسع اليابانى فى منشوريا والصين معارضة فعالة ، ومن ناحية أخرى ، أخذت الدول الفاشية ، وهى دول ليست لها مستعمرات فى آسيا يخشى عليها ، تتقرب بصورة مباشرة من اليـــابان ..

ويرجع اتجاه اليابان نحو التوسع والعدوان على الدول الاخرى الى عام ١٩٢٦ ، على وجه التحديد .. فمنذ ذلك العـــام بدأ تاريخ الامبراطورية اليابانية يتجه اتجاها جديدا .. وخـــلال الحرب العالمية الاولى ـ وقد أوضحنا كيفية نهوض اليابان ووصولهـا الى مركز القوة فى ذلك الوقت ـ تضاعف عدد أفراد الطبقة العاملة ـ وأصبحت مدن مثل أوزاكا (وكانت من قبل ميناء متواضعا لتصدير الارز) وناجويا ، وكوبى ، مراكز صناعية كبرى .. وتجـــه المهندسون الفنيون اليابانيون الى جميع الدول فى الغرب كمـــا توجه الى هناك جواسيس التجارة اليابانيين ، ذوى الأســـارير المنبسطة ، والذين روى عنهم مديرو مصانع السيارات السويسرية، والمسئولون فى محطات التجارب الزراعية الأندونيسية ، قصصـا لا تصدق .. وبالاضافة الى ذلك حولت اليابان العلوم والتكنولوجيا الغربية الى علوم وفنون خاصة بها .. وفى عـــام ١٩٢٠ ـ ١٩٢١، تقريبا ظلت الحركة العمالية محتفظة بطابعها الثورى كنتيجة لارتفاع اسعار الأرز والقطن والسلع الاستهلاكية الاخرى ، ونتيجـة للانباء المتعلقة بالثورة الروسية ، وكذلك الروح الجديدة التى سرت فى ذلك العصر ، والموقف المتردد من جانب الحكومة تجـــاه حركة الاضرابات .. وقـــد تكون الحكومة تمكنت من القبض على زمام الامور تماما عام ١٩٢١ ، الا أن الهياج العام للمطالبة بالمساواة فى الحقوق الانتخابية ، ازداد عما كان عليه .. وفى عام ١٩١٩ ارتفع

عدد النـــاخبين من ٠٠٠ر٥٠٠ر١ ناخب الى ٠٠٠ر٠٠٠ر٣ ناخب . وفى مارس عام ١٩٢٥ أصبح لكل يابانى صوت ، فيما عدا النساء ، فقد كان عليهن أن ينتظرن حتى عام ١٩٤٦ ، وبذلك ارتفع عـــدد الناخبين عام ١٩٢٥ من ٠٠٠ر٠٠٠ر٣ ناخب الى ١٤ مليون ناخب فى بلد يبلغ عدد سكانه ٦١ مليون نسمة .. ويمكن القول انه فيما يتعلق بالسياسة الداخلية ، كانت اليابان تسلك أسرع الطرق لكى تصبح دولة ديموقراطية حديثة ، كبريطانيا مثلا ، ولكنها أشـــد منها تحرزا ، وهذا ما سبب القلق للطبقات الحاكمة .

وكانت السياسة الخارجية اليابانيـــة أول الأمر غير محددة المعالم ، الى درجة ما ، وفى عام ١٩١٩ كانت اليابان ما زالت معزونة الى حد ما .. وكما حدث من قبل حاولت الدول أن تحرمهـــا من المكاسب التى أحرزتها فى الحرب . وبالاضـــافة الى ذلك كانت الولايات المتحدة تخشى أن تصبح شمس اليـــابان المشرقة المستمرة فى الصعود شديدة الحرارة جدا .. وفى المؤتمر البحرى الذى عقد فى وشنطن (من ١٢ نوفمبر ١٩٢١ الى ٦ فبـــراير ١٩٢٢) عملت بريطانيا وأمريكا ، بقدر الامكان ، على منع اليـــابان من احراز اية مكاسب .. وكما كانت معاهدة فرساى التى أملتها فرنســـا ، السبب فى غرس بذور الحرب العالمية الثانية ، فى اوروبا ، كذلك أصبحت المعاهدات التى أبرمت فى وشنطن سببا فى نشوب حروب جديدة فى الشرق الأقصى ..

وكانت مهمة المؤتمر البحرى فى وشنطن هى بحث مســـألة التسلح البحرى للدول الكبرى ومشكلات الشرق الأقصى . واشترك فى هذا المؤتمر ، بالاضافة الى ممثلى الولايات المتحـــدة ، مندوبون

من بريطانيا وفرنسا وايطاليا وبلجيكا وهولندة والبرتغال والصين واليابان •• ولم توجه الدعوة الى الاتحاد السوفييتي ، الذى لم تكن الولايات المتحدة تعترف به ، لحضور المؤتمر •• وكانت النتائج التى توصل اليها المؤتمر هى :

١ ـ عقد معاهدة الباسيفيك فى ١٣ ديسمبر عام ١٩٢١ بين الولايات المتحدة وبريطانيا وفرنسا واليابان والتى اعترف بمقتضاها لكل طرف بممتلكات الأطراف الاخرى فى المحيط الهادى ، والتى بمقتضاها أيضا تم حل التحالف البريطانى اليابانى ، رغم معارضة اليابان ••

٢ ـ عقد معاهدة شيانتونج فى ٤ فبراير سنة ١٩٢٢ والتى بمقتضاها أعيد ميناء كيوتشو الألمانى المطل على البحر الاصفر (وهو الميناء الذى استولت عليه اليابان عام ١٩١٤) الى الصين •

٣ ـ عقد معاهدتين بين تسع دول فى ٦ فبراير وبمقتضاهما تم الاعتراف بسيادة الصين على أراضيها واستقلالها السياسى •• وكان هذا يعنى أن جميع الدول يمكنها أن تمارس نشاطها الاقتصادى فى الصين ، الا أن اى دولة من الدول لاتستطيع انشاء احتكار لها فى مناطق معينة •• وكانت تلك فكرة امريكية ، ذلك لأن امريكا اعتقدت أنها تستطيع ، بواسطة أحدث وسائل الانتاج الآلى فى العالم ، أن تتغلب على الوسائل الاستعمارية التى تتبعها أوروبا واليابان ••

٤ ـ كانت اسوأ المعاهدات بالنسبة لليابان ، هى المعاهدة البحرية التى عقدت فى ٦ فبراير ، والتى حددت معدل حمولات السفن بالنسبة للدول الأربع ، وهذا يعنى أن تكون لكل من بريطانيا

والولايات المتحدة سفنا تصل حمولتها الى ٥٢٥ ألف طن ، ولليابان سفنا حمولتها ٣١٥ ألف طن ، ولكل من فرنسا وايطاليا سفنا حمولتها ١٧٥ ألف طن .. وكان الهدف من ذلك أيضا هو قمع اليابان .. وتعرضت كبرياء اليابان لمزيد من الجراح عندما صدر قانون الهجرة الأمريكي الجديد عام ١٩٢٤ والذى بمقتضاه منع اليابانيون ، من حيث المبدأ ، من الهجرة الى الولايات المتحدة .

وظهرت عواقب ذلك كله بسرعة .. فقد سارت مظاهرات ضخمة ضد امريكا تطالب بمقاطعة البضائع الامريكية ، وفى السياسة الخارجية بدأت اليابان تميل الى اتباع أسلوب أكثر لينا تجاه الصين والاتحاد السوفييتى .. والمثال الأصح لذلك هو توقيع الاتفاق الروسى اليابانى عام ١٩٢٥ والذى بمقتضاه أعيدت العلاقات الدبلوماسية بين البلدين ، واعترفت روسيا بمعاهدة بورتسماوث التى أبرمت عام ١٩٠٥ ، وسحبت اليابان قواتها من شمال سخالين . ولتعويضها عن ذلك حصلت اليابان على امتيازات استغلال النفط والفحم هناك ..

وكانت هذه الأشياء كلها ، بلا شك ، بمثابة سكب الزيت على الأمواج الصاخبة للاستعمار اليابانى ، الا أن تأثيرها المهدىء كان ضئيلا جدا .. وفى عام ١٩٢٦ نشأ رد فعل مفاجىء وعنيف ، فقد استعدت اليابان لطرد الاستعمار الغربى من آسيا ، واحلال الاستعمار اليابانى مكانه .. وكانت سيبيريا ومناطق جنوب شرقى آسيا بمثابة أهداف لها خطرها ، وكانت الصين القريبة من اليابان والتى يسودها الانقسام الشديد تبدو كفريسة ملائمة . وفى ٢٤ مارس عام ١٩٢٧ دخل جيش الكومنتانج ، الذى كان ثوريا فى ذلك الوقت ، تحت قيادة شيانج كاى شيك ، نانكين ، وظهرت الصين

من جديد بمظهر الدولة المتحدة .. وكان اتحاد الصــين يعنى أن آمال اليابان سوف تتحطم . .وكانت نتيجة هذا الموقف قيــام بارون تاناكا زعيم حزب سيجوكاى ، وهو حزب محافظ متطرف ، بوضع سياسة « ايجابية » معادية للصين .. وقد أصــبح بارون تاناكا رئيسا للوزارة اليابانية فى ١٧ أبريل عام ١٩٢٧ .. وفى مايو من العام نفسه ظهر الضباط اليابانيون فى شانتونج وعملوا على منع الوطنيين الصينيين من احتلال بيكين .. وفى أبريل عام ١٩٢٨ تدخل الجيش اليابانى قبل أن تســـــقط بيكين فى أيدى الوطنيين . وحدث قتال دموى فى تسينان وسيطر اليابانيون على غالبية الخطوط الحديدية فى شانتونج .. الا أن حركة المقاطعـــة القوية التى قام بها الصينيون شكلت تهديدا شديدا ، وفى مايــو عام ١٩٢٩ انسحب الغزاة انتظارا لفرصة أفضل .

وقد أصبح تاناكا مشهورا باعتباره - كما قيل عنه - صاحب التقرير السرى الذى سلم للامبراطور . والذى عرف باسـم مذكرة تاناكا (١٩٢٧) ، وعرف هذا التقرير عام ١٩٢٩ ، وقد ذكر فيـه أن احتلال الصين لن يصبح ممكنا الا اذا تم احتلال منشـــوريا ، ومنغوليا ، وأن احتلال الصين يعد شرطا جوهريا لغزو اسيا »

وما زالت هناك شكوك حول مدى صحة هذه الوثيقة ، الا أنه لا شك فى أن اليابان اتبعت ، فى الفترة ما بين ١٩٢٧ ، ١٩٤١ ، السياسة التى وردت فى تلك المذكرة الى حد كبير .

غير ان الازمة الاقتصادية الكبرى التى يذكرها التاريخ كنتيجة للتدهور الشديد الذى حـــدث فى « وول ســتريت » ، فى ٢٩ اكتوبر عام ١٩٢٩ ، أحدثت توترا كبيرا .. وقد جنت اليابان ، او

على الاقل الراسمالية اليابانية ، ارباحا طائلة من وراء ذلك • وعندما لجأت بريطانيا في سبتمبر عام ١٩٣١ ، وهي في أزمتها الاقتصادية الشديدة ، الى خفض سعر الجنيه ، لجأت اليابان الى خفض سعر الين قليلا ، وبذلك تم لهـــا طرد بريطانيا وغيرهـا من الدول الغربية من كثير من الأسواق ، واغرقت البضائع اليابانية العالم ، وأصبحت تصدر ليس الى البلدان المستعمرة والمتأخرة فحسب ، وانما الى لندن وباريس ونيويورك أيضـــا •• واتخذت الدول الصناعية الاخرى اجراءات لفرض القيود على الاستيراد ، واتهمت اليابان بأن ليس لديها أى تشريع اجتماعى وأنهـا تعطى العمال أدنى الاجور كى تبيع بضائعها بأسعار تقل بكثير عن أسعار بضائع الدول الغربية الاخرى ••

ان هذه الاتهامات لاتخلو من الصواب ذلك لان العمال اليابانيين فى الموانىء وافران الغاز العالية ، وكذلك الفتيات اللائى تعملن فى مصانع القطن ، كانوا يتقاضون أجورا تعتبر فى دول الغرب أجورا غير معقولة فى أوقات الازمات الشديدة . فمثلا فى مصنع متوسط للقطن يتقاضى المديرون والعمال مجتمعين مبلغا يعادل ما يتقاضاه المديرون وحدهم فى مصنع مماثل فى أندونيسيا .. فماذا حدث للمبالغ الطائلة التى جنتها اليابان من وراء صادراتها الضخمة ؟ الم تذهب هذه المبالغ الى الصناعة الحربية وحدها ؟ .

لقد ارتفع عدد العمال فى مصانع المعادن والآلات وفى مصانع المواد الكيماوية ــ وهى التى اصبحت تعتبر بصورة متزايدة مصانع حربية ــ من ٣٨٥ الف الى مليون و٢٣٥ الف عامل فى الفترة من ١٩٣١ الى ١٩٣٧ .

وكانت حالة البؤس التى يعيش فيها عمال المصانع اليابانيون ـ ومنهم نسبة تتراوح ٤٠ ، ٥٠ فى المائة من النساء والاطفال ـ رهيبة بما فيه الكفاية ، الا أن حالة البؤس التى كان يعيش فيها الفلاحون كانت دون الوصف . وكانت نسبة ١٥ فى المائة من أراضى اليابان تقريبا منزرعة ، ولم يكن ممكنا زراعة مساحات اخرى . وكان ٥٫٥٠٠٫٠٠٠ من عائلات الفلاحين تعيش فى الحقول والحدائق التى تبلغ مساحتها ١٥ مليون فدان تقريبا . وبمعنى آخر كان هؤلاء الفلاحون يشكلون نسبة ٥٥ فى المائة من مجموع السكان . وفى الفترة التى نتحدث عنها كان ٥٠ فى المائة بالضبط من هؤلاء يدفعون ايجارات ، وما يتراوح بين ٣٠ ، ٣٥ فى المائة يمتلكون مزارع خاصة . وكان الفلاحون يمتلكون عددا قليلا من الحقول ، ونصف هذه الحقول تقل مساحة الواحد منها عن ٢٫٥ فدان ، ونصف فى المائة من هذه الحقول تقل مساحة الواحد منها من فدان واحد ، وعشرة فى المائة منها تزيد مساحة الواحد منها عن ٥ فدادين .

ان الاحصائيات اليابانية تطمس الفروق بين الفلاحين واصحاب الاراضى . وقد قدر عدد ملاك الاراضى الذين لا يزرعون ارضهم بحوالى مليون شخص على الاقل . وكان ملاك الاراضى واصحاب مصانع السماد الصناعى ، والدائنون وكذلك الدولة ، كان كل هؤلاء يعتصرون الفلاح كالليمونة . وكان شيئا عاديا أن تتراوح قيمة ايجار الارض بالنسبة لثمن المحصول بين ٥٠ ، ٦٠ فى المائة وبالاضافة الى ذلك لم يكن ايجار الارض يقدر بنسبة ثابتة من قيمة المحصول وانما كانت قيمة الايجار ثابتة ، وهو النظام الذى تخلصت منه أوروبا فى العصور الوسطى . وكانت الشعوب

الآسيوية والافريقية هى وحدها التى تستطيع أن تفهم تماما حالة الفلاح اليابانى المتوسط . وقد لاحظ الرحالة القادمون من الغرب الذين زاروا غابات اليابان أن الاشجار ليس لها لحاء ، وكان هذا امرا محيرا ، الا انه يعطى صورة بشعة لحالة الفلاحين . فقد اضطر الفلاحون فى المناطق اليابانية الى انتزاع لحاء الشجر ليأكلوه . كما أن القصص التى تروى عن قيام الفلاحين ببيع اطفالهم ليست من نسج الخيال .

والامثلة العديدة على هذه التجارة يمكن الاطلاع عليها فى الكتب الكثيرة التى تناولتها ، والتى ذكرت فيها الارقام والاسعار المتعلقة بهذا الموضوع . ففى الفترة من يناير الى اكتوبر عام ١٩٣٤ بيعت فى الاقاليم الشمالية الاربعة ٥٠ الف صبية باسعار تتراوح بين ٢٣٠ ين لتلك التى تعمل فتاة جيشا ، ٥ ين للعاملة فى المصنع .

وطبيعى ان الزراعة اليابانية ، وهى أساس عفن للاقتصاد اليابانى ، كانت تعطى انتاجا ضئيلا جدا بالنسبة لانتاج الغرب ففى عام ١٩٣٠ أنتج الفلاحون اليابانيون البالغ عددهم ١٤ مليون نسمة مقدارا اقل من انتاج المزارعين البريطانيين البالغ عددهم مليونان ، وفى ذلك الوقت لم يكن الاقتصاد البريطانى فى وضع حسن . والحقيقة الاخرى الصاعقة هى انه لم يكن فى هولندة سوى ٢٥٠ الف من الفلاحين والبستانيين فى مقابل ١٤ مليون فلاح يابانى ، ومع ذلك فان الانتاج الزراعى الهولندى كان يعادل ثلثى الانتاج اليابانى .. وكان الدخل الشهرى للاسرة اليابانية فى الاراضى المستاجرة يصل الى ثلاثين ين ، وهو مبلغ يعادل قيمة مائة رغيف ، و٢٠ جالون من اللبن وربما أيضا ٧٥ بيضة .

فاذا ادركنا هذا كله تمام الادراك ، فسوف نفهم بصورة أفضل ان العدوان اليابانى كان يعتبر بمثابة طريقة للتهرب من مشكلة الفلاحين الذين ضاقت بهم السبل ، والطبقة العاملة التى راحت تستيقظ ، وعلى ضوء هذا كله لا عجب ان منعت الطبقة الحاكمة فى اليابان دراسة علم الاجتماع فى الجامعات .

ولقد كان الوقت يبدو مناسبا سنة ١٩٣٠ لبدء الهجوم اليابانى . فمن ناحية كان يبدو ان الصين مهيأة لهذا الهجوم اكثر من ذى قبل ، اذ كانت كل اراضيها وكذلك غالبية القوى فيها تعترف بالحكومة الوطنية فى نانكين ومن ناحية أخرى كانت الدول الغربية الكبرى مشغولة بالازمة الاقتصادية الكبرى وكان الجيش اليابانى مستعدا . وقد طرات « الاحداث » من تلقاء نفسها ، ففى ٢٧ يونيو ١٩٣١ قام الجنود الصينيون بقتل ضابط يابانى يدعى ناكامورا ، الذى كان جاسوسا فعليا فى غربى منشوريا، ويمكن القول أنهم اعدموه وفى منتصف اغسطس صدر تقرير رسمى عن الحادث فى اليابان ، وكان الهدف الواضح من اصدار هذا التقرير هو اثارة الراى العام ضد الصينيين ، وهكذا راحت الامور تسير طبقا للخطة الموضوعة . وفى ليلة ١٨ ـ ١٩ سبتمبر كان جيش كونتونج يجرى مناورات ليلية قرب موكدن ، وفى الوقت نفسه حدث انفجار فى مكان ما على خط السكة الحديدية. وكان هذا هو « الحادث » الثانى . وقبل مطلع الفجر كانت موكدن قد تم احتلالها هى وعدة مدن أخرى . وبسقوط هربين فى فبراير ١٩٣٢ أصبحت منشوريا مستعمرة يابانية . ولمواجهة اية طوارىء نزل ٧٠ الف جندى يابانى عند شنغهاى وأصبحت هذه المستعمرة الجديدة تعرف حينذاك اسم منتشوكيو ، وأعلن استقلالها (١٨)

فبراير ١٩٣٤) . وفى عام ١٩٣٤ تم تنصيب بو - اى رسميا امبراطورا لمنتشوكيو ، وكان بو - اى قد خلع وهو صبى عن عرش الصين عام ١٩١٢ ، وسيطر « مستشاروه » اليابانيون على الحكومة .

ولم تلجأ الدول الغربية الى وضع اية عراقيل فى طريق اليابان اثناء حملاتها فى الصين . فمن ناحية، كانت لندن وباريس ووشنطن مغلولة الايدى بسبب الازمة والمتاعب فى اوروبا ومن ناحية أخرى كان هناك اعتقاد عام بأن العدوان اليابانى فى الصين ، وما أعقبه من عدوان على سيبريا آخر الامر ، هو أقل خطورة من الهجوم على احدى المستعمرات الاوروبية والامريكية فى جنوب شرقى آسيا . ولم تكن هذه السياسة تختلف عن تلك التى اتبعتها الدبلوماسية الغربية تجاه المانيا النازية . وكانت النتيجة الوحيدة للاحتجاج المكتوب من جانب عصبة الامم انسحاب اليابان من العصبة (٢٧ مايو ١٩٣٣) . وفى الوقت نفسه احتل اليابانيون اقليما صينيا آخر هو « جيهول » الواقع شمال سور الصين العظيم ، وعلى بعد ستين ميلا من بكين . وفى عام ١٩٣٥ احتلوا تشاهار ، وهو الاقليم الذى يقع بين جيهول والحدود الجنوبية الشرقية لمنغوليا .

وكان جانب كبير من الشعب اليابانى على ما بدا ، فى ذلك الوقت على الاقل ، يقف ضد سياسة الحرب التى تتبعها الحكومة، وفى الانتخابات التى جرت يوم ٢٠ فبراير ١٩٣٦ فاز حزب الاحرار المعتدل « حزب متسيتو » بالاغلبية . وكان رد القوى الرجعية على ذلك هو تلك المذبحة العسكرية التى حدثت فى

السادس والعشرين من نفس الشهر ، وقد قتل خلالها عدد من الوزراء . واستطاعت الحكومة ان تسيطر على الموقف آخر الامر ، وبعد مضى فترة قصيرة بدات اليابان تتجه بصوره متزايده نحو نظام الدولة الاستبدادية وكان المستقبل يبدو اكثر ظلاما ، وكما يقول اليابانيون : يتصاعد من فوجياما ، وهو بركان اليابان المشهور».

ولكى تثبت اليابان استقلالها عن بريطانيا وامريكا وقعت فى نوفمبر عام ١٩٣٦ الاتفاقية المعادية للكومنترين التى وضعت فى برلين ، وهى الاتفاقية التى وقعتها فيما بعد ايطاليا (١٩٣٧) والمجر واسبانيا ومنتشوكيو (١٩٣٩) وكانت الاتفاقية موجهة فقط ضد « الدولية الثالثة » ، فكانت فى الواقع سلاحا ضد الاتحاد السوفيتى وضد الصين وكل الدول الغربية الاخرى التى لا تنتمى الى الكتلة الفاشية ».

وبينما راحت الاحداث تتعاقب فى جنون ، بدأت الجبهات السياسية للحرب العالمية الثانية تتشكل . ففى أوروبا بدأ رفع الستار عن الحرب الكبرى الجديدة باعادة احتلال أراضى الراين (٧ مارس ١٩٣٦) التى تقرر نزع سلاحها بمقتضى معاهدة فرساى، وكذلك قيام موسولينى ، دون أن يعترضه عائق ، بغزو اثيوبيا (٣ اكتوبر ١٩٣٥ — ٥ مايو ١٩٣٩) ، وبوجه خاص الحرب الاهلية فى اسبانيا (١٨ يوليو ١٩٣٦ — ابريل ١٩٣٩) وهى الحرب التى اتبعت تجاهها الدول الديمقراطية الغربية سياسة عدم التدخل ، وقد قام رجال الكتائب الالمانية والايطالية بالاجهاز على الجمهورية الاسبانية الفتية .

وفى شرق آسيا يمكننا ان نقول أن نفس الحرب العالمية الجديدة بدات ليلة السابع من يوليو عام١٩٣٧ عند جسر ماركوبولو

فى بيكين ، وقد كانت تلك الليلة هى اشارة البدء للهجوم اليابانى الكبير ضد الصين ، وبغض النظر عن الحربين العالميتين الكبيرتين، فان هذه الحرب تعتبر اكبر حرب فى التاريخ .

وفى مارس عام ١٩٣٨ :قر البرلمان اليابانى قانون التعبئة الاقتصادية ، وبمقتضاه وضع كل انتاج البلاد ووضعت الواردات والصادرات والملاحة وكل شىء تحت السيطرة المباشرة للجيش والاسطول . وفى كل المجالات ازدادت الاحوال سوءا واصبحت اليابان بصورة متزايدة دولة بوليسية ، وكان العمال ، بل والمرضات أيضا ، الذين يعملون ١٢ ساعة يوميا ، يتعرضون للاعتقال اذا ما طالبوا بزيادة فى الاجور . واصبحت الصحف والجامعات تحت الرقابة التامة للبوليس . واى شخص يعلن احتجاجه على سياسة الحكومة يختفى فى سجون البوليس السرى .

وعندما انفجر الخراج الفاشستى فى اوروبا فى سبتمبرعام١٩٣٩، واندلعت نيران الحرب العالمية الثانية بغزو الالمان لبولندة ، شعرت طوكيو ان الساعة قد حانت لكى تحقق حلمها . وفى ١٣ ابريل عام ١٩٤١ ، عندما احتل الالمان ثلاثة ارباع أوروبا ، وقعت اليابان معاهدة الحياد الروسية اليابانية ، وهى المعاهدة التى تضمن تأمين الجبهة الخلفية اليابانية عندما توجه اليابان ضرباتها نحو الجنوب . ولم يكن أمام الاتحاد السوفيتى سوى ان يوقع المعاهدة لانه كان يدرك أن المعاهدة الروسية الالمانية التى وقعت فى ٢٣ اغسطس ١٩٣٩ اصبحت فى ذمة الماضى . وفى ٢٢ يونيو عام ١٩٤١ قام الجيش الالمانى بغزو الاراضى الروسية فى جبهة تمتد مسافة تزيد عن ١٦٠٠ ميل .

وفى ٢٩ سبتمبر أعلن هيديكى طوجو (رئيس وزراء اليابان ـ الذى أعدم شنقا كمجرم حرب فى خريف عام ١٩٤٨ ـ أنه يجب انهاء النفوذ البريطانى والامريكى فى شرق آسيا . وفى الثانى من ديسمبر ، علم روزفلت بأهداف اليابان فى الهند الصينية . وبينما كانت المحادثات دائرة خرجت قطع الاسطول اليابانى الى عرض البحر ، وفى صبيحة السابع من ديسمبر تساقطت القنابل فـوق القاعدة البحرية الامريكية فى بيرل هاربر . وفى الوقت نفسه هاجمت السفن والطائرات اليابانية جــوام وميدواى وويك والفيليبين وهونج كونج والملايو . وكانت آسيا تتقدم بينما الغرب يتداعى » وامتدت الحرب العالمية الثانية الى آسيا والباسيفيكى .

٢

تركيا

لقد راينا من قبل كيف انه ، خلال الحرب العالمية الأولى ، تمزقت الامبراطورية التركية بشعوبها العديدة ، وكيف أن دولة أصغر ،ولكنها دولة قومية ، هي التي بقيت آخر الامر .

وفى عام ١٩١٩ كانت الاقليات التى لها شأن فى تركيا هي اليونانيون ، واغلبهم يقطنون المناطق الغربية ، والاكراد والارمن ويقطنون المناطق الشرقية ، وكل هؤلاء كانوا يشكلون ٢ فى المائة من مجموع السكان البالغ حوالى عشرة ملايين نسمة واليوم يبلغ عدد سكان تركيا ٢٢ مليون نسمة والأقليات الوحيدة التىتستحق الذكر هى الأكراد (٦ فى المائة) واليونان (٢ في المائة) ، و٩٨في المائة من السكان مسلمون ، وكانت تركيا هي اول دولة آسيوية صغيرة تحرر نفسها من الامبريالية الأوروبية والامريكية . وكان المثل الذي ضربته تركيا بمثابة (خميرة) أحدثت تأثيرها فى المناطق الاسيوية الاخرى، لهذا السبب فاننا نتناول تركيا بالبحث أولا قبل غيرها من الدول الكثيرة الاخرى التي تعد اكثر اهمية منها من حيث عدد سكانها أو نفوذها السياسى .

وسوف نتناول ببعض الشيء من التفصيل مرحلتين مرحلة الثورة الوطنية (١٩١٩ـ١٩٢٦) ومرحلة التخطيط واعادة بناء الدولة (١٩٢٦ـ١٩٣٠) وفيما بين المرحلة الأخيرة والحرب العالمية الثانية كان دور تركيا فى التاريخ العالمى أقل اهمية ايضا :

وأول بادرة لانبعاث الشعورالقومى كانت فى ١٤ مايو ١٩١٩. وهو اليوم الذى قام فيه اليونانيون ، بتشجيع من لندن وباريس، باحتلال سميرنا (وهى أزمير اليوم) على الساحل الغربى لآسيا الصغرى • وكانت الدول الغربية قد وضعت من جديد ، وبصورة نهائية هذه المرة ، مشروعا لتقسيم تركيا وكان هذا الشروع يقضى بأن تحتل بريطانيا اسطنبول والمضايق ، وهى مفتاح الطريق الذى تستطيع الثورة الروسية ان تسلكه فى تقدمها وراء الحدود الروسية ومنحت اليونان حرية العمل فى آسيا الوسطى بينما قسمت المناطق الجنوبية بين ايطاليا وفرنسا • وتقدم الفرنسيون من سوريا ، بينما هبط الايطاليون فى أيدالية (وهى أنتاليا اليوم) وتقع على الشمال الغربى من قبرص على الساحل الجنوبى (٢٥ ابريل ، ١٩١٩) وبدا أن الحلم الذى ظل يراود الغرب طوال القرون الماضية على وشك أن يتحقق ، فتركيا سوف تختفى من الخريطة ، ويلحق الصليب الهزيمة بالهلال •

وكان ذلك كله حلما ولكنه لم يكن حلما جميلا جدا فقد حاربت الثورة الوطنية التركية فى جبهتين : ضد السلطان محمد السادس (٤ يوليو ١٩١٩ـ ١ نوفمبر ١٩٢٢) وضد حكومته الفاسدة فى اسطنبول التى كانت تحميها قوات نيوزيلندية ، وكذلك ضد الدول التى غزت البلاد وضد عملاء هذه الدول • فكان هذاالتهديد المزدوج هو احد الاسباب التى أدت الى رد الفعل القوى وتحقيق النصر آخر الأمر • وفى اليوم الذى دخلت فيه القوات اليونانية أزمير (١٥ مايو ١٩١٩) عقد اجتماع وطنى فى هذه المدينة وتقرر فيه بالاجماع عدم السماح بضم الاراضى التركية الى أراضى دولة اخرى • وفى ٢٨و٢٩ مايو كان رجال المقاومة المقاتلون يحاولون

وقفت تقدم اليونانيين قرب أوديميس ، التى تبعد حوالى ٤٥ ميلا الى الجنوب من أزمير الا انه لم يزل من الأمور التى يرجع فيهـا الشك انه ماكانت الثورة الوطنية لتتطور على النحو الذى حدث لو لم يفزع السلطان من مصطفى كمال (١٨٨٠ــ١٩٣٨) ولقد التقينا بمصطفى كمال من قبل كشاب تركى عام ١٩٠٨ ، وكضابط تركى فى طبرق خلال الحرب ضد ايطاليا، وفى غاليبولى خلال الحـرب ضد بريطانيا ، وقد نفى الى آسيا الصغرى ، ولم يكن تعيينه قائدا عاما للجيش الثالث الا تحقيقا لهذا الغرض وكان نفى مصطفى كمال اجراء يتسم بالغباء الشديد نظرا لان اسيا الصغرى هى المكان الملائم للرجل الخطر لكى يصبح أشد خطورة . فلم يكن يعيش هناك سوى الأتراك ، وكانت هذه المنطقة هى مركز القومية ،وفى ١٩ مايو هبط مصطفى كمال فى سامسون ، وهى ميناء صغير على ساحل البحر الأسود . وكان هذا بمثابة يوم ميلاد الدولة الجديدة نتيجة للحركة القومية ولحالة الثورة وكان لذلك ــ ككل شىء جديد حقا فى التاريخ جانباه السىء والطيب ، وخلال بضعة أسابيـع تجمعت كل الاناضول حوله . وتصرف السلطان كرجل، فقد عقله، فقد اثار الاكراد ضد الوطنيين واعلن اعتبار مصطفى كمال خارجا على القانون ، وهى تصرفات ، كانت ابعد من أن تفيد السلطان ، ولا تؤدى الى شىء سوى أن دعمت المقاومة الوطنية وفى الصيف نظم مصطفى كمال مؤتمرا اقليميا فى ارضروم ، بمنطقة الجبال الشمالية الشرقية (٢٣ يوليو الى ٦ اغسطس ١٩١٩) وفى سبتمبر عقـد المؤتمر الكبير فى سيفاس ، التى تبعد مسافة ١٢٥ ميلا عن سامسون وفى هذا المؤتمر وضع الاتراك الخطوط العريضة الخاصة بسياستهم الجديدة وللدفاع عن استقلالهم وسلامة الدولة . وتم التخـلى

عن

عمدًا وفى اصرار ، عن كل الأوهام الماضية وكل الأفكار الخاصة بانشاء امبراطورية اسلامية كبرى .

وفى هذا ربما تكمن لعظمة الحقيقية لمصطفى كمال . وقد خاطر كمال بعمل لم يكن يستطيع السياسى الوطنى العادى أداءه فالقى بالماضى العظيم وراء ظهره وبدأ شيئا جديدا على مستوى أصغر . ان عظمته مماثلة لعظمة وليم اوف أورنج ، الذى استطاع أن يصنع دولة هولندا الصغيرة من ١٧ اقليما اسبانيا - هولنديا تمتد بين دولارد ودنكرك ، وأن يجعل منها أساسا للجمهورية الحرة التى ولدت كنتيجة للمقاومة ضد ملك أسبانيا . ان الضابط التركى فى القرن العشرين ،مثله في ذلك مثل الامير الهولندى فى القرن السادس عشر ، قد أثبت صحة العبارة التى قالها هسيود قبل ذلك بعدة قرون : أيها الاغبياء ، ألا ترون كم يكون النصف أكبر بكثير من الكل)

لقد حان وقتئذ موعد الانتخابات الجديدة فى تركيا ،وحاول السلطان بكل السبل أن يحصل على الاصوات ، فقدم تنازلات الى الثوار بأن طرد داماد فريد ، رئيس حكومة الخونة من اسطنبول ومن ناحية أخرى بعث السلطان بخطاب الى الدول الكبرى يدعو فيه الى الوفاق ، وهى آخر بادرة تصدر عن الامبراطورية العثمانية التى كانت ترتعد أوروبا أمامها فى الفترة من ١٥٠٠ الى ١٧٠٠ . غير ان الانتخابات جاءت نصرا لمصطفى كمال .

وفيما يتعلق بالشئون الدخلية لم يعد للسلطان أو لوزرائه اى تأثير فى مستقبل البلاد .

وفى مساء ٢٨ يناير عام ١٩٢٠ وبعد أن تحدث مصطفى كمال في البرلمان لمدة سبع ساعات ، أقر البرلمان السياسة التي وضعها مؤتمر سيفاس ، وبمعنى آخر أقر حق تقرير المصير ، وهى الفكرة التي كان لها وقع السحر ليس فى تركيا فحسب بل فى كل مناطق آسيا • وبالاضافة الى ذلك تقرر ان تكون اسطنبول تركية ، وان يتم تحرير المضايق وتغادر كل القوات الاجنبية الاراضى التركية . وأحيط الحلفاء الغربيون علما بأن تلك هى الشروط التي لابد منها لانهاء حرب الاستقلال وفى هذه الظروف المضطربة اثبتت الاجراءات السياسية التي اتخذها كمال أنه يمتلك احدى الصفات المميزة لكبار الساسة ، وهى مقدرته على رؤية الحلم والواقع فى آن واحد فانه دون حلم يبدو بعيد المنال ، فان السياسة تغوص فى الرمال المتحركة لحقيقة محدودة بالزمن ، ودون وجود احساس بالواقعية فان السياسة تنفصل عن الحقائق التي تعتبر بمثابة احساس لها ، وتتوه فى بحر من الاوهام •

وقد أدرك البريطانيون الخطر القائم فعادوا الى احتلال اسطنبول من جديد وتحت غطاء نيران مدفعية السفن الاجنبية ، عاد داماد فريد ليشكل من جديد حكومة رجعية • وقد رد مصطفى كمال على ذلك فورا . ففى ٢٣ أبريل عام ١٩٢٠ دعا الجمعية الوطنية الى عقد أول اجتماع كبير لها فى أنجورا (وهى اليوم انقرة) وكانت الجمعية الوطنية هى قاعدة الحركة الثورية المعادية للحكومة وهى التي حكمت تركيا من ذلك الحين فصاعدا • وحاولت الدول بكل السبل عرقلة نمو الثورة فلم تلجأ ـ كما ذكرنا ـ الى ارسال قوات يونانية وايطالية وفرنسية وبرطانية الى تركيا فحسب بل انشأت ايضا فى مؤخرة تركيا الجديدة (جمهورية أرمينيا) التي

تتألف من اجزاء من الأراضى التركية وأجزاء من الأراضى الروسية وزعمت هذه الدول انها ترغب فى حمـــاية الارمنيين ، وكانت هناك فعلا اسباب كافية تدعو الى فرض هذه الحماية ، الا أن هناك تفسيرا آخر لهذا الاجراء من جانب الحلفاء ، فقد اعتقد البلاشفة أن حقولهم البترولية فى باكو مهددة • وفى صيف هذا العــام قامت تركيا وروسيا سويا بحل جمهورية أرمينيا ، وفى شتاءعام ١٩٢١ وقع البلدان معاهدة كارس التى خططت الحدود بين تركيا والاتحاد السوفيتي وهى الحدود القائمة الان ، ونظرا لان الدولتين كانتا تشعران بأن الدول التى تشكل تهديدا بالنسبه لاحداهما هى نفس الدول التى تهدد الدولة الأخرى ، فقد قامت بين البلدين، أول الأمر ، علاقات طيبة وقد أخذت تركيا فكرة الاقتصـــاد الموجه عن الثوريين الروس •

وفى ذلك الصيف احتل الغزاة اجزاء كبيرة من تركيا • وفى يونيو زحفوا من سمرانيا (أزمير) الى الداخل واحتلوا ايضا عددا من المناطق فى القطاع الأوروبى من تركيا وفى يوليو أصبحـوا يسيطرون على كل الأقاليم الساحلية المزدحمـة السكان والغنيـة بالثروات • ووقع السلطان اتفاقية سيفرز المجحفة (٢٠ اغسطس) وهى الاتفاقية التى وضعت خطوطها فى مؤتمر الحلفاء بسان ريمو (١٨ ابريل ١٩٢٠) وبذلك تضاءلت تركيا لتصبح منطقة صغيرة من التلال • وفى ذلك الوقت كتب لورنس فى جـــريدة التايمس يقول : (ان اتفاقية سيفرز كانت نتيجة غير معقولة لجشـــع الحلفـــاء) ولم تكن عواقب هـــذه الاتفاقيـــة فى الحسبان ، اذ اقتنع جميع الاتراك حينذاك بخيانة اسطنبول وادرك كل من الروس والعرب الصلة التى تربط بين الثورة التركية وثورتهم الخاصة.

وكلما تقدمت الجيوش الغازية داخل تركيا اشتدت حـدة المقاومة ضدها وقد قام عصمت باشا بصد القوات اليونانية مرتين قرب اينونو (يناير ومارس ١٩٢١) وفي عام ١٩٣٤ اطلق عصمت باشا على نفسه اسم عصمت اينونو بينما كان كل الاتراك يسمون تبعا لالقاب أسرهم . وفي الصيف شن اليونانيون هجوما آخر واسع النطاق على انقره وقد حققوا نجاحا أول الامر فاستولوا على كوتاهية واسكي شهر على بعد ١٢٠ ميلا من انقرة تقريبا . وفي اغسطس وصلوا الى وادى سكارية الحار ، وهو يبعد حوالى ٥٠ ميلا عن انقرة . وكانت البوادر تبدو طيبة (بالنسبة لقوات الغزو) الا أنه اتضح خلال القتال الدموى العنيف (٢٤ اغسطس الى سبتمبر ١٩٢١) أن روح مصطفى كمال صلبة لاتتزعزع، وبدأ اليونانيون ينسحبون ، وظلت انقره ، عاصمة الثورة بعيدة عـن الغزو وعندئذ اصبح زمام المبادرة في ايدى الأتراك فبدأوايهاجمون وفي عام ١٩٢٢ تم جلاء الفرنسيين عن المناطق التى احتلوها ، وكان الايطاليون قد انسحبوا قبلهم في يونيو وفي أغسطس كان اليونانيون يسارعون بالفرار نحو الساحل ، وفي بداية سبتمبر دخل الأتراك مدينة ازمير والنيران تشتعل فيها وكانت حملة الغزو الفاشـلة قد بدأت من هذه المدينة .

وأصبحت بريطانيا هى الدولة الوحيدة حينذاك من بين الدول الغازية ، التى أبدت استعدادها للاستمرار في القتال كي تحتفـظ بالمضايق . وقد شعرت الدول الغازية كما شعرت بريطانيا بأنهـا قد نالها من المتاعب من وراء (المغامرة التركية) ، ما فيه الكفاية لكنا ان بريطانيا لم تكن من القوة بحيث يمكنها ان تفرض رغباتها فرضا . وكانت سياسة الحرب التى اتبعها لويد جورج سببا في

سقوط وزارته وفى اكتوبر تم فى ميناء مونداينا المطل على بحر مرمرة التوصل الى اتفاق بين الحلفاء و(العصابات التركية) واعقب هذا الاتفاق توقيع معاهدة لوزان الحاسمة فى ٢٤ يوليو عام ١٩٢٣ ، ففى الفندق السويسرى المطل على بحيرة جنيف تم الاتفاق على ان ينال الأتراك اقليم تراس الشرقى الذى يمتد حتى الماريتزا التى يطلق عليها اسم القسم الأوروبى من تركيا وكذلك الجزيرتين الجبليتين الصغيرتين الواقعتين عند مدخل مضيق الدردنيل ، وهما امبروس وبوزكادا • وحصلت تركيا على الدوديكانيز ،وهى سلسلة من الجزر لها أهمية استراتيجية محضة وتقع قرب الساحل الجنوبى الغربى لاسيا الصغرى ، وكانت ايطاليا قد احتلت هذه الجزر عام ١٩١٢ وظلت قبرص خاضعة لبريطانيا (تم احتلالها عام ١٨٧٨ ، وضمتها بريطانيا الى أراضيها عام ١٩١٤) وتقرر جعل المضايق (الدردنيل ، وبحر مرمرة والبسفور) مناطق مجردة من السلاح ، على ان يسمح فى وقت السلم لسفن جميع الدول بالمرور فى هذه المضايق ، أما فى وقت الحرب فلا يسمح للسفن بالمرور الا اذا كانت تركيا ملتزمة جانب الحياد ، فاذا مادخلت تركيا الحرب فان سفن الأعداء هى وحدها التى لايسمح لها بالمرور • وتقرر أيضا ان يتم بمقتضى معاهدة تركية يونانية (١٩٢٣-٢٤) ترحيل ٢٫٠٠٠٫٠٠٠ يونانى بالقوة من تركيا الى اليونان ، وترحيل خمسة آلاف مسلم تركى يعيشون فى اليونان الى تركيا

وفى ٢٣ اغسطس عام ١٩٢٣ جلت الحامية البريطانية عن اسطنبول • وفى ٢٩ اكتوبر ولدت الجمهورية التركية رسميا واصبحت عاصمتها انجورا التى تغير اسمها الى انقره عام ١٩٣٠وتولى مصطفى كمال رئاسة الجمهورية (١٩٢٣ - ١٠ نوفمبر ١٩٣٨)

وتولى عصمت باشـا ، الذى كان يدعى أيضا عصمت اينـونو، رئاسة الوزارة (١٩٢٣ــ٣٧) وكان السلطان قد فر اثناء ذلك الى الخارج على ظهر سفينة بريطانية (١ نوفمبر ١٩٢٢) وتم وضـــع دستور ديمقراطى تحقق بمقتضاه فى الداخل ماحققته معاهـــدة لوزان فى الخارج ، فقد دعم هذا الدستور الثورة التى بدأت فى مايو ١٩١٩ فى الجبال المحيطة بسامسون •

واذ صار الغرب حينذاك غير قادر على الحاق الأذى ، فقد رأى مصطفى كمال ان فى امكانه ان يطبق فى امان تام خطط الاصلاح بالأسلوب الغربى وعندئذ فقط أصبحت تركيا متحررة تماما من التدخل الغربى : السياسى والاقتصادى والعسكرى ، بعد ان لفظت هذا التدخل مثلما كانت تلفظ من قبل أى اجراء تمدينى • وكان كمال ثوريا متطرفا وقد اتخذ من روسيا نموذجا فى أشياء كثيرة منها على سبيل المثال اتباع نظام الحزب السياسى الواحد ، ومنـــع الاستثمارات الأجنبيه ، وبصفةعامة طبق الأساليب التمدينيةالحديثة بصورة متزايدة • فمن انقرة ، التى تقوم فى موقع ردىء من حيث المناخ والناحية الاقتصادية ولكنها تبعد عن اسطنبول ذات التقاليد الرجعية ، والتى تقع فى قلب ، اراضى الفلاحين من أنقرة ستشرقا شمس دولة حديثة تصبح رمزا للثورة •

وكان الاجراء الذى اتخذه لحظر ارتداء الطربوش والعمامة أمرا له دلالته الرمزية فى هذا المجال ، وان كان الغاء نظام الخلافة فى (٣ مارس ١٩٢٤) مما ساعد على اضعاف الثقافة الاسلامية التى كانت قد صارت حينذاك جامدة بعض الشىء ، وعلى دخول تركيا فيما نسميه المدنية الغربية .

كما ساعد عليها ايضا نفى اعضاء أسرة السلطان السابق ، والغاء المادة التى تنص على أن الاسلام هو دين الدولة الرسمى فى الدستور (١٩٢٨) ومن بين الاجراءات التى اتخذت فى مجال تحرير المرأة الغاء نظام الحريم والغاء تعدد الزوجات (١٩٢٥) وادخال النظم الحديثة فى قوانين الطلاق (١٩٢٥) وتطبيق القانون المدنى بصورة اجبارية فى الزواج (١٩٢٦) ومنح النساء حق الانتخاب (١٩٣٤) وفى جميع المجالات ، تم ادخال النظم الحديثة بدل القوانين التى وضعت فى القرون الوسطى ، فقانون العقوبات استمد من القانون الايطالى والقانون المدنى استمد من القانون السويسرى ، والقانون التجارى استمد من القانون الألمانى (١٩٢٦) وتم الغاء ألقاب البكوية والباشوية ، وصدر قانون يحرم على جميع الأتراك استخدام ألقاب الأسرة (١٩٣٤) وقد لجأ مصطفى كمال فى ذلك الوقت الى تغيير اسمه الى كمال اتاتورك .

لم تكن حروف الكتابة العربية ملائمة للغة التركية القريبة من لغة المغول وكان العرب قد نقلوا حروف لغتهم الى تركيا عندما دخل الاسلام تركيا - واستبدلت بها حروف الهجاء اللاتينية وظهرت الصحف المطبوعة بالحروف اللاتينية عام ١٩٢٨ وفى العام التالى أصبح محظورا طبع الكتب باللغة العربية وكما حدث بالنسبة للقوانين الخاصة بمنع تعدد الزوجات وحظر ارتداء الطربوش أو العمامة ، فقد صاحبت عملية تغيير حروف الكتابة حملة دعاية واسعة النطاق للفكرة الجديدة . وقام كمال اتاتورك بنفسه برحلات دعائية الى قرى الاناضول المتفرقة حيث حاول اجبار الفلاحين الذين لا يعرفون الكتابة ، هم وزوجاتهم ، على الكتابة بالحروف اللاتينية . وحلت التركية محل العربية والايرانية كلغة للحياة

اليومية ، وصار ينبغى على كلّ فرد أن يستطيع ، وقد استطـاع فعلا ، أن يعبر باللغة التركية عما يريد وقد استبعدت كـــل التأثيرات الايرانية والعربية واليونانية وغيرها من التأثـــيرات الأجنبية من اللغة التركية . وفى عام ١٩٣٠ تم (تتريك) الأسماء الجغرافية • فاصبحت القسطنطينية : اسطنبول ، وانجورا : انقرة وسـمايرنا : ازمير ، وادريانوبل ادرنه وهـكذا . وبدأ المؤرخون الأتراك يدونون التاريخ من جديد باعتباره وحدة مستقلة ترجع فى اصولها الى السومريين ، وهم الشعب الذى عاش فى وديان دجلة والفرات منذ حوالى أربعة الاف سنة قبل الميلاد • وتم انشاء جامعة جديدة وكلية للزراعة فى أنقره رغم ان الاساتذة كانوا أول الامر من الاجـانب واكثرهم من الالمان وذلك بسبب الافتقار الى الأساتذة الاتراك • ولقد كان ٩٠ فى المائة من الاتراك أميين فى الماضى ، أما فى عام ١٩٣٥ فقد أصبح ٢٠فى المائة منهم قادرين على القراءة والكتابة بالحروف اللاتينية، واليوم يحصل ٥٠ فى المائة على الاقل قدرا اكبر من التعليم

ومن أجل ادخال النظم الحديثة على الاقتصاد استحضرالخبراء الروس واتبعت الاساليب الروسية بصفة عامة ولكن بصورة قد تكون اقل تطرفا ومنع ادخال رءوس الاموال الأجنبية الى البلاد • وتم انشاء المصانع الكبرى التابعة للدولة فى انقرة طبقا للمشروعات التى وضعت بهذا الشأن ، ونفذت مشروعات أخرى دون تخطيط من الدولة ومدت طرق جديدة للسيارات مما أوجد وسيلةمواصلات سهلة لنقل انتاج المناجم •

ولكى يزداد الانتاج الزراعى تم تاميم صناعة التشجـــير • واستحضرت الالات والأسمدة الصناعية ، وتم انشاء محطات للرى

وصوامع للغلال ولكن بدلا من تطبيق نظام المزارع الجماعية المتبع فى روسيا بحذافيره ، فقد نشرت فكرة التعاونيات الاختيارية بين الفلاحين ورغم ان الفلاحين (وهم يشكلون حوالى ثلثى عـدد السكان لايزرعون الا خمس أراضى تركيا كما انهم مازالوا يتبعون الطرق البدائية فى الزراعة رغم ذلك فان تركيا تنتج اليوم ، الى جانب الكريز ، المشمس والزبيب والعنب واربعة فى المائة من انتاج العالم من زيت النخيل وثلاثة فى المائة من انتاج العالم من التبغ و ٣ فى المائة من انتاج العالم من الشعير والقمح ، و ١/٢ ا فى المائة من انتاج العالم من القطن . غير انه من المؤكد أن الفلاحين والعمال الزراعيين لا يعيشون بعد فى ترف .

وفى مؤتمر مونترو (٢٠ يوليو ١٩٣٦) استردت تركيا حقوقها فى المضايق ، بعد قيام الحرب الاهلية فى اسبانيا بوقت قصير وقبل أى شىء آخر كنتيجة لقيام ايطاليا باحتلال الحبشة (١٩٣٥) وكان هذا بمثابة خطوة جديدة فى المناورة الفرنسية والبريطانية ضد ايطاليا والاتحاد السوفييتى . وخوفا من ان تعوق المنازعات السياسية الدولية الجهود التى تبذلها تركيا لاعـادة بناء نفسها فقد وقعت تركيا، قبل الحرب العالمية الثانية بوقت قصير معاهدة حياد وعدم اعتداء مع فرنسا وبريطانيا (مايو - يونيو ١٩٣٩) وكانت تركيا قد وقعت قبل ذلك معاهدات مماثلة مـع الاتحاد السوفييتى (١٩٢٥ ، وتجددت عام ١٩٢٩) ومع اليونان ورومانيا ويوغوسلافيا (١٩٣٤) ومع ايران والعراق وأفغانستان (١٩٣٧)

وخلال الحرب العالمية الثانية أصمت تركيا أذنيها أمـام التهديدات والمداهنات الصادرة عن أى الجانبين . والتزمت الحياد

ولم تعلن تركيا الحرب الا على المانيا بعد أن أصبحت مهزومة فعلا في فبراير عام ١٩٤٥ • وبدلا من ان تشغل تركيا نفسها بأى شيء من هذا القبيل ، فقد كرست كل وقتها للمحافظة على مكاسب الثورة وتدعيمها ■

٣

الدول العربية «١»

فى فرساى ، وفى طقس شتوى ، افتتح مؤتمر الســلام ، وفى هذا المؤتمر ظهرت الى جانب الاوروبيين والامريكيين ، الذين كانوا يشكلون اغلبية كبيرة بطبيعة الحال ، ظهرت جماعة من العرب فى مظهر مبهج وهم يرتدون عباءاتهم البيضاء ، وكان هذا هو وفــد الحجاز الذى يرأسه فيصل ، أكثر اولاد الحسين ذكاء . فعنــدئذ كان الوقت قد حان لجنى ثمار حرب التحرير الدمــوية ، وكان المتوقع أن تتوحد الدول العربية الواقعة بين البحر الاحمر ونهــر الفرات تحت حكم حسين بن على « ملك العرب » كما كان يحب أن يسمى نفسه . الا انه اتضح أن السادة فى الهوايتهول (١) والكاى دورساى (٢) لايرغبون فى تنفيذ وعودهم وكانت الخطة الغــربية تقضى بالابقاء على الوضع القائم فى الدول العربية وهذا يعنى أن تنال شبه الجزيرة العربية استقلالها ولكن المناطق البريطانيــة على السواحل الجنوبية والشرقية لا تدخل ضمن المنطقة المستقلة وتقرر ان يوضع العراق تحت الادارة البريطانية ، وان تقسم سوريا ـ وبمعنى آخر الاقليم التركى السابق الذى كان يعرف بهــــذا الاسم ـ وكذلك كل الاراضى الممتدة بين مصر ، والبحــر الابيض

---

(١) شارع فى لندن تقع فيه الابنية الخاصة بعــــدة وزارات حكومية بما فى ذلك وزارة الخارجية .

(٢) مقر وزارة الخارجية الفرنسية .

المتوسط ، وتركيا والعراق وشبه الجزيرة العربية الى ثلاثة مناطق دون أن تنال استقلالها . وتقرر ان تصبح فلسطين منطقة عربية يهودية مختلطة تحت الادارة البريطانية ، وفى الداخل تقـــرر أن تصبح الاردن تحت الحكم البريطانى أيضا ، أما المنطقة الســاحلية الشمالية ، وخاصة سوريا على أقل تقدير فقد تقرر أن تخضـــع لفرنسا . وقيل حينذاك ان تلك ترتيبات مؤقتة ،ولكننا نستطيع أن نتبين فى هذه الاجراءات بسهولة خطة التقسيم التى تقررت فى اتفاقية سايكس ـ بيكو فى مايو عام ١٩١٦ ، وهى الخطة التى لم يكن يقصد منها ، بكل تأكيد أن تكون خطة مؤقتة .

وكان الفرنسيون ، الى جانب ذلك ، مستعدين للاعتراف بفيصل كممثل لشبه الجزيرة العربية ، ولكن ليس كممثل لسوريا وعلينا أن نذكر ان فرنسا كانت قد أقيمت فى ذلك الوقت ، دولة كبرى من جديد ، ولو بصورة مؤقتة ، دولة من أهم الدول الـــكبرى فى القارة الاوروبية ، وربما احدى دول العالم الكبرى ، الى جـــانب بريطانيا والولايات المتحدة، ولهذا كانت فرنسا تستطيع أن تفعـــل الشىء الكثير وكما يحلو لها . وقد طالب فيصل ، الذى يميل الى الاعتدال ، بارسال لجنة تحقيق الى سوريا ، فأجيب الى طلبه ؛ ولكن ذلك لم يتم الا لان الرئيس ولسون وافق على ذلك . وجدير بالذكر انه لم يذهب الى سوريا سوى الامريكيين وحـــدهم الذين شكلوا لجنة سميت باسم لجنة « كنج ـ كرين » ومنع منـــدوبو الدول الاخرى فجأة من الذهاب الى سوريا . ولم يكن ما اكتشفته اللجنة فى سوريا مما يدعو الى السرور . وقد أوصت اللجنـــة بأن توضع سوريا بعض الوقت تحت الانتداب ، ولكن ليس تحت الادارة الفرنسية . حدث ذلك منـــذ اربعين عاما مضت ، عنـــدما كان

الامريكيون لا يستطيعون معارضة فرنسا وبريطانيا . وهكذا دخل مشروع ، وضع بعناية فائقة ، طي النسيان ، واليه يرجع الكثير من أحداث التاريخ .

وقد اتضح على الفور أن العرب ليسوا مستعدين لقبول ذلك في صمت . ففى ٢ يوليو عام ١٩١٩ أعلن مؤتمر كل - سوريا في دمشق أنه يجب أن تستقل سوريا والعراق وتزول عنهما السيطرة الاجنبية . وكان كل من البلدين مستعدا لقبول المساعدة الفنية والعسكرية والسياسية ، الا انه لم يوضع أى تنظيم لذلك : فالمساعدات تؤخذ ، ان أمكن ، من الولايات المتحدة ، ومن بريطانيا ، ان اقتضت الضرورة ذلك ، ولكنه تقرر عدم الحصول على أية مساعدات من فرنسا مهما كانت الظروف . وهنا علينا ان نشير من جديد الى عاملين ليسا معروفين تماما بين العوامل التى ادت الى نهضة الولايات المتحدة لتصبح دولة كبرى . فالولايات المتحدة ، بمقارنتها بفرنسا وبريطانيا ، ليس لديها طاقة انتاجية أكثر ضخامة وأرصدة احتياطية اكبر من الذهب فحسب ، بل لديها أيضا تراث استعمارى اقل وضوحا بكثير ، والسياسة التى تتبعها ، اذا حدث تدخل من جانبها فى احدى المناطق هى سياسة اقتصادية أكثر صرامة الى حد كبير . وكانت امريكا تبدو ، فى أنظار العرب ، أقل خطورة . وفيما يتعلق بمسلك العرب تجاه بريطانيا وفرنسا يمكننا أن نعيد فقط ما ذكرناه فيما يتعلق بالدول الاسيوية والافريقية الاخرى . ان البريطانيين لم يكونوا محبوبين ولكنهم كانوا مكروهين بدرجة تقل كثيرا عن الكراهية التى لحقت بفرنسا ان البريطانيين قد يكونون ، كأفراد ، متصفين بالعجرفة - وهم فى الواقع يعيشون محصورين داخل جزيرتهم - وقد شنوا حروبا

استعمارية تشبه فى وحشيتها اى حرب أخرى ، ولكن البريطانيين لديهم فهم سياسى للدول الاخرى وللثقافات الاخرى . وان علاقة كتلك القائمة اليوم بين الهند وبريطانيا ليس من السهل تصور قيام مثلها بين فرنسا واحدى مستعمراتها السابقة .

وعندما سعى لويد جورج وكليمنصو الى تنفيذ خططهما ضاربين بنصيحة امريكا عرض الحائط ، احتج فيصل على ذلك ولكنه أعلن انه لن يقاوم احتلالا فرنسيا مؤقتا للشريط الساحلى السورى وقد وجه العرب اللوم الى فيصل بسبب ذلك . وحدثت اصطدامات واحتكاكات عديدة بقوات الاحتلال فى سوريا وخاصة عندما بدأ البريطانيون يسحبون قواتهم من القطاع « الفرنسى » . وعقد مؤتمر سورى ثان فى ٨ مارس ١٩٢٠ وصدر قرار على وجه السرعة يدعو الى انشاء مملكتين دستوريتين مستقلتين هما : سوريا : وتشمل كل الاراضى الممتدة بين مصر وتركيا ، بحيث يصبح فيصل ملكا عليها ، والعراق ، التى ستصبح مملكة عبدالله الا أن باريس ولندن كانتا قد خططتا خريطة للشرق الاوسط وتذكرتا حقول البترول فى الموصل وايران ، وكذلك النقطة الحساسة الواقعة فى الجنوب الغربى وهى قناة السويس . ولهذا رفضت دول الاحتلال قيام ممالك عربية مستقلة .

وفى مؤتمر صغير عقدته فرنسا وبريطانيا فى سان ريمو (٢٦ ابريل ١٩٢٠) جددت الدولتان تدوين مطالبهما على الورق . وتقرر ان تعطى المنطقة التى تعرف اليوم بسوريا ولبنان لفرنسا ، وان تعطى فلسطين واراضيها الداخلية والعراق لبريطانيا .. ووقعت أحداث جديدة فى المنطقة لم يكن فى الامكان تجنب العواقب التى نجمت عنها ، فالشعب اذا عرف الحرية ، فانه يدافع عنها . وعندئذ

ارسلت باريس انذارا واضحا الى فيصل (فى ١٤ يوليو اى يوم ذكرى ثورة ١٧٨٩ الفرنسية) بانه اذا حدثت اعمال مقاومة اخرى فان التدخل العسكرى سيجىء فى عقابها . وقد استسلم فيصل من جانبه ، ولكن العرب لم يستسلموا ، وقاموا بحركة بطولية لمحاولة طرد الغزاة ، الا أن جيشهم — جيش العرب — الذى كان يمكن وصفه بأى وصف آخر غير القول بانه حديث ، تحطم فى أسبوع ، وهو ماكان بن سعود قد وضعه فى حسباته ، ولم يغب عن ذاكرته أبدا . واحتل الفرنسيون دمشق (٢٥ يوليو) ونفوا فيصل هو وأفراد أسرته (٢٨ يوليو) كان هذا هو ما جرى فى سوريا ، وسوف نعود الى الحديث عنها مرة أخرى فيما بعد .

وفى العراق ايضا لم تكن الدولة المحتلة راغبة اطلاقا فى منح الاستقلال . وتحولت المقاومة العربية التى انفجرت فى سوريا فى صورة حرب عصابات ، الى ثورة مريرة فى العراق وابتداء من يوليو حتى ديسمبر عام ١٩٢٠ ظلت عدة حاميات بريطانية محاصرة لعدة أسابيع وطبقا للتقارير البريطانية قتل او أصيب عشرة الاف من رجال المقاومة العرب على الاقل . وقد عرف عام ١٩٢٠ فى الشرق الادنى بانه عام الكارثة ، ولم يكن ذلك بلا سبب .

كان التنازل الوحيد الضخم الذى قدمه البريطانيون فى هذه الفترة ، هو كما يبدو ، الاعتراف بعبد الله اميرا على شرق الاردن ، رغم انه كان يعتبر مجرد أداة مدلله ، والاعتراف بفيصل المطرود كملك للعراق (٢٣ اغسطس ١٩٢١) وبعد اخماد الثورة العراقية ، تم على الاقل ارساء أسس الاستقلال النهائى خلال عهد سير بيرسى كوكس ، المندوب السامى البريطانى . اما فى سوريا ولبنان وفلسطين وشرق الاردن فقد ظل الاستقلال معلقا . واعتبرت

اوروبا نفسها قادرة على حكم العالم . ولكن الاعتقاد بهذا امر يختلف من القدرة الفعلية على القيام به ، كما أنه يختلف أيضا عن القيام بحكم العالم فعلا .

لقد كان يمكن حتى ذلك العهد أن ينظر الى تاريخ الاقطار العربية دائما ككل واحد أما بعد أن تم فصل هذه الاقطار بعضها عن بعض بحدود دولية ، وتحولت الاقاليم « التركية » السابقة الى دول ومناطق تحت الانتداب ، فان علينا أن نعالج كلا من هذه الاقطار على حدته : شبه الجزيرة العربية ، العراق ، سوريا ، فلسطين وشرق الاردن . وفى هذا الفصل سنتعرض لتاريخ شبه الجزيرة العربية وحدها . ومع ذلك فان علينا أن نبين فى وضوح أن المثل الاعلى لدولة عربية متحدة تمتد من البحر الاحمر الى الحدود التركية والايرانية ، ظل دائما هدفا يتطلع العرب الى تحقيقه . ولقد كان كسبا تاريخيا حقا ان ترفض الدول العربية ، التى صارت حينذاك تستخدم الاساليب الفنية الغربية وتمارس طرق التفكير الغربية ، الاستمرار فى البلقنة (اى الانقسام الى بلدان متعددة كما حدث فى منطقة البلقان) التى تعد ضد الاهداف القومية . وكان امرا مفجعا ، رغم انه قد لا يمكن تجنبه ، وحادثة هامة فى تاريخ نهضة الاقطار العربية ، لو ظلت هذه الاقطار ، الاصيلة فى لغتها وثقافتها العربية ، منفصلة بعضها عن بعض ، كما فعلت اقطار امريكا الاسبانية .

فى هذه الفترة لم تكن شبه الجزيرة العربية تمثل وحدة سياسية . فبالاضافة الى المناطق البريطانية فى الجنوب وهى مستعمرة عدن التابعة للتاج البريطانى والمحميات مثل حضرموت وعمان ومسقط ، هناك خمسة اقاليم هى : (أ) مملكة الحجاز ؛

وفيها مكة والمدينة ، وتقع الى الشمال الشرقى من البحر الاحمر ، ويحكمها الملك حسين (١) . (ب) سلطنة نجد ، وهى منطقة صحراوية ضخمة بها واحات ، وتقع فى الوسط ، وكان يحكمها بن سعود الوهابى (٢) (١٨٨٠ - ١٩٥٣) . (ح) امارة شمر فى الشمال عند الحدود العراقية ، وهى جزء من الصحراء السورية الكبرى ، وكانت تحكمها أسرة رشيد . (د) ولاية عسير الصغيرة ، وتقع على البحر الاحمر جنوبى الحجاز . فهذه الاقاليم الاربعة تشكل الان المملكة العربية السعودية التى يبلغ تعداد سكانها ستة ملايين نسمة منهم مليونان يعيشون فى الحجاز . والقطر الخامس هو امامة اليمن ، وقد تحولت الى مملكة (١) وهى مركز صناعة البن المشهورة وتقع فى الجنوب الغربى من شبه الجزيرة العربية ، الى الغرب من عدن . وتقول الاحصاءات الرسمية أن تعدادسكانها ٥٠٠ر٣ ولكن يعتقد ان تعداد السكان يقل بكثير عن ذلك .

ويمكن تلخيص تاريخ شبه الجزيرة العربية من عام ١٩٢١ الى عام ١٩٤١ فى كلمات قلائل ، فقد الحق ابن سعود الهزيمة بكل الاقطار فى شبه الجزيرة فيما عدا اليمن . وقد بدأ الغزو عام١٩١٩ ، عندما استطاع أن يمزق قوة من فرسان حسين وسط التلال

---

(١) الشريف حسين

(٢) الملك عبد العزيز آل سعود .

(١) قامت ثورة فى اليمن يوم ٢٦ سبتمبر عام ١٩٦٢ بقيادة عبد الله السلال فاطاحت بعرش الائمة وفر محمد البدر ، آخر ائمة اليمن ، واعلنت الجمهورية العربية اليمنية برئاسة المشير عبد الله السلال .

الرملية فى الداخل . والتجأ حسين الى بريطانيا طلبا للمساعدة وعقد حلفا مع ابن رشيد حاكم شمر . وفى خريف عام ١٩٢١ قام ابن سعود بمحو القطر الذى تحكمه أسرة رشيد من على الخريطة. وكان قد قام قبل ذلك بضم عسير الى أراضيه فى صيف عام ١٩٢٠، وفى أغسطس عام ١٩٢٤ قام الوهابيون بغزو الحجاز . وتمزقت مملكة حسين وهوت متناثرة كأوراق اللعب ولم يكن حسين محبوبا من رعاياه العرب أكثر من حب الذين غزوا مملكته له ، وقد تنازل حسين عن عرشه (٣ أكتوبر) وسلم الحكم لابنه على ، الذى كان مثله غير قادر على مواجهة الازمة . واحتل ابن سعود مكة (١٣ أكتوبر) ثم المدينة (٥ ديسمبر) وعندما استسلمت جدة (٢٣ ديسمبر) كان بن سعود قد وصل الى البحر الاحمر محتلا جبهة عريضة ، وأصبح عندئذ يلقب « بملك الحجاز وسلطان نجد » ؛ وكان لقبه الاصلى هو سلطان نجد ، وفى فبراير ١٩٢٧ غير لقبه الى « ملك الحجاز ونجد ».

واعترفت لندن باستقلاله التام (معاهدة جدة فى ٢٠ مايو ١٩٢٧) ولم تكن هذه المعاهدة معادلة جوفاء . فمن ناحية اخرى سلمت معان ، فى الشمال الغربى ، والعقبة ذات الوضع الاستراتيجى الهام الى شرق الاردن التى أصبح لها بذلك ميناء على البحر الاحمر . وتعهد بن سعود بترك الشريط الساحلى الجنوبى الغربى كما هو ؛ اى استمراره خاضعا لبريطانيا .

وبمقتضى دستور ١٨ سبتمبر عام ١٩٣٢ تغير الاسم الرسمى لدولته ليصبح « المملكة العربية السعودية » رغم احتفاظها بشخصيتها المزدوجة . فقد كانت لها عاصمتان : الرياض فى الداخل ، ومكة فى الحجاز . وكانت المحاولة الاخرى الوحيدة

للتوسع هى الحملة ضد اليمن . وتمت محاصرة الامام ، الا أنه يبدو أن بن سعود لم يكن ليستطيع ضم تلك الاراضى الزراعية المغرية الى اراضيه . وفيما عدا بعض التغييرات على الحدود ظلت اليمن دولة مستقلة . فلم حدث هذا الانسحاب المفاجىء ؟ وهل اصبح الثعلب الخبيث حملا وديعا ؟ وهل كان الامام سياسيا أكثر حصافة منه ؟ ان شيئا من ذلك لم يكن صحيحا . ان السبب فى الانسحاب هو أيطاليا ، التى كانت فى ذلك الوقت مازالت دولة كبرى . ففى الثمانينيات فى القرن الماضى غزا الايطاليون اريتريا على الشاطىء المواجه لشاطىء السعودية على البحر الاحمر ، وفى عام ١٨٩٠ قامت ايطاليا بضم اريتريا الى ممتلكاتها . وفى عام ١٩٢٦ قام امام اليمن بدافع الخوف من قوة بن سعود المتزايدة ، بعقد معاهدة امن مع ايطاليا (تجددت فى عام ١٩٣٧) واستطاعت اليمن من طريق المناورات بين المملكة السعودية وبريطانيا وايطاليا ، ان تحتفظ باستقلالها ظاهريا على الاقل .

لماذا كانت ايطاليا فى عهد موسولينى شديدة النشاط فى هذه المناطق ؟ انه عندما هاجم ابن سعود اليمن ، كانت ايطاليا قد اعدت خططها لغزو الحبشة (١٥ أكتوبر ١٩٣٥ - ٥ مايو ١٩٣٦) وكانت تؤيدها فى ذلك حكومة لافال فى فرنسا بصورة شبه رسمية وشبه سرية . وكان يمكن أن تتحول تلال اليمن ، بمزارع البن المشهورة فيها ، الى عدن ايطالية ، وربما اصبحت قاعدة ضد بوابة بريطانيا الى البحر الاحمر ، وربما أصبحت أيضا حجر أساس لامبراطورية استعمارية ايطالية فى الدول العربية وشرق أفريقيا ولقد استبد موسولينى حلمه الخيالى فى انشاء امبراطوريةرومانية وتحويل البحر الابيض المتوسط ، الى بحر داخل الاراضى الايطالية

فارسل جيوشه لتحارب فى افريقيا واسبانيا وفرنسا واليونان واوكرانيا . وقد تعلمنا من كمال أتاتورك أن من أهم صفات السياسى العظيم مقدرته على الجمع بين الحلم والحقيقة ولم تكن الامبراطورية العربية ـ الافريقية التى يتطلع بنيتو موسولينى الى انشائها الا مجرد حلم ، وهو حلم ليس بجميل على الاطلاق .

والدلالة العظيمة للمكاسب التى أحرزها بن سعود تكمن فى الطريقة التى اتبعها لاحراز هذه المكاسب ، وهنا نستطيع ان نذكر ثلاثة عوامل :

(ا) شخصية الشعب العربى فى نجد ، والتناقض القائم بين عرب الحجاز ـ بعضهم مزارعون والبعض الاخر يعيش فى عدن ـ والوهابيون البدو الرحل فى داخل الصحراء . وبالاضافة الى ذلك فان الوهابيين ، كما هو معروف ، يعتبرون جماعة اسلامية خاصة تتبع السنة . وفى بداية القرن التاسع عشر كانوا يمتلكون مكة والمدينة ودمشق ، المعرضة للتهديد ، ولم يستطع الحاكم التركى فى مصر أن يرغمهم على التراجع داخل الصحراء قبل عام ١٨٢٠ (فى عهد محمد على) وبعد مضى قرن من الزمان أصبح الوهابيون بمثابة أكبر خصم لحسين الذى سمح لنفسه بأن يطلق على نفسه لقب خليفة جميع الشعوب الاسلامية بعد أن تم طرد خليفة القسطنطينية . وقد كانت لهذا المسلك المتعجرف من جانب حسين عواقب فى الخارج كما كانت له عواقب داخل شبه الجزيرة العربية نفسها . كان الساسة فى لندن قد لاقوا مافيه الكفاية من لقب «ملك كل العرب » .

وفى الهند وباكستان كان المسلمون يعتبرون ابن سعود زعيما لهم .

(٢) لم يرفض ابن سعود - ولماذا لا يعترف بذلك ؟ - المساعدات من لندن . وكان هذا ينطوى على الالتزام باشياء معينة ان الاساليب التى اتبعها بن سعود تؤكد حقه فى ان يسمى اعظم سياسى عربى فى العصر الحديث . فقد كان يعرف دائما كيف يتفوق بفطنته وذكائه على الساسة فى لندن .

(٣) وكانت هناك حركة لادخال النظم الحديثة فى البلاد . وقد لجأ بن سعود ، مثله فى ذلك مثل اتاتورك رغم انه ليس متحررا مثله ، الى تحويل اراضى مملكته التى تعيش فى وضع يشبه الوضع فى العصور الوسطى ، الى دولة حديثة ، حتى يمنع الاوروبيين من أن تكون لهم كلمة مسموعة فى شبه الجزيرة العربية وقد أدى اكتشاف البترول فى السعودية الى جعل مهمته أكثر سهولة . وقد قام أولا ، وقبل اى شىء آخر ، بتنفيذ المشروع الذى كان قد بدأه عام ١٩١٠ ، وهو يقضى بتوطين مئات الالوف من العرب البدو الرحل ، والرعاة ، بقطعانهم من الماشية والماعز والاغنام . وهنا نجد انفسنا أمام حالة اخرى ، معاصرة لما كان يحدث فى كازاخستان الروسية ، وهى حالة شائعة فى تاريخ جميع الشعوب . لقد أصبح البدو الرحل فلاحين مقيمين ، واخذوا يزرعون الحبوب ويحصدون محاصيلها . وكان هذا بمثابة تغير قد يضع نهاية للجمال الرومانتيكى ولكنه يؤدى الى زيادة الانتاج الزراعى ، وبالتالى يقلل من بؤس الشعب وحالة عدم الامن التى يعيش فيها . وحينذاك ، وبعد أن أصبحت قوة البدو الرحل فى ذمة الماضى ، فقد تأكدت كثيرا سلامة المسافر فى المناطق الداخلية . واختفى قطاع الطرق ولصوص القوافل كما يختفى الثلج تحت اشعة الشمس . وحلت وسائل الاتصال بالبرق والتليفون وكذلك السفر بطريق الجو محل الجمال

أو على وجه الدقة حلت محل الهجين ، التى كانت الوسيلة الوحيدة للمواصلات . واذا لم يكن يوجد فى المملكة السعودية اليوم شبكة ضخمة من الطرق الحديثة ــ عدا الطرق التى مدت اخيرا فى منطقة استخراج البترول والطرق التى مدت بين جدة ومكة ، وبين جدة والمدينة ، وهى وحدها الطرق المرصوفة ــ فان الطرق العديدة القائمة هناك تستخدم لمرور السيارات .

واذا استثنينا الجمال وقليل من الصوف ، فانه لا يوجد لدى السعودية أصلا ما تصدره الى الخارج ، فيما عدا الذهب الذى يستخرج من مناجم « مهاد وهاباد » التى تقع بين مكة والمدينة ، ويعد السيل الضخم من أفواج الحجاج المسلمين الى مكة والمدينة ، الى جانب النفوذ السياسى الذى يعطيه للسعودية ، ذا اهمية اقتصادية كبيرة . الا أن سنوات الرخاء الحقيقى لم تبدأ الا بعد أن قام المهندسون التابعون لشركة البترول العربية الامريكية (أرامكو) بحفر آبار البترول عام ١٩٣٧ فى منطقة الظهران بأقليم الاحساء على الساحل الشمالى الشرقى ، ويبلغ عدد سكان هذه المنطقة اليوم ٢٠٠٫٠٠٠ نسمة . وخلال الانابيب الحديدية تدفقت من المملكة السعودية ثروة كانت مجهولة حتى ذلك الوقت ، وفى وقت قصير اصبحت حقول البترول فى الظهران وابكايك معروفة فى انحاء العالم . وكان كل البترول يرسل أول الامر الى معامل التكرير البريطانية فى البحرين القريبة من هناك ، أما اليوم فقد تم انشاء معمل ضخم للتكرير فى راس تنورة وهو المكان الذى اعتادت الجمال ان ترعى فيه والذى الف صيادو اللؤلؤ ان يرسوا عنده قواربهم ويربط هذا المعمل بالبحر الابيض المتوسط عن طريق لبنان خط من الانابيب يبلغ طوله الف ميل . ان شبه الجزيرة العربية

تنتج الآن خمسة في المائة من بترول العالم . واذا كان قيام الامريكيين بتنفيذ مشروعات البترول يشكل خطورة من الناحية السياسية ؛ فانه يجب عدم التقليل من قيمة ذلك باعتباره وسيلة للتموين = وطبقا للنظم المتبعة حاليا تحصل السعودية على نصف ارباح البترول وقد قام الامريكيون بمد خطوط السكك الحديدية والطرق وانشاء المساكن الحديثة ووسائل توصيل المياه ، وبذلك ساعدوا على المساكن الحديثة ووسائل توصيل المياه . وقد دعا ابن سعود في سياسته الخارجية الى الوحدة الاسلامية او على الاقل الوحدة العربية . وكانت المعاهدات التى وقعها مع تركيان وايران والعراق وشرق الأردن واليمن ومصر ، في الفترة من ١٩٢٩ الى ١٩٣٧ ؛ هي الغرس الذي ثمر بقيام جامعة الدول العربية عام ١٩٤٥ =

٤

الدول العربية «ب»

فى اكتوبر عام ١٩٢٠ وبينما كانت حرب العصابات مستمرة ضد قوات الاحتلال البريطانية ، وصل الى بغداد سير بيرسى كوكس المندوب السامى البريطانى فى العراق الواقع تحت الانتداب(١٩٢٠ـ ١٩٢٣) . وفى يونيو ١٩٢١ وصل فيصل ، ملك سوريا السابق الى البصرة . وجرى استفتاء وافق فيه ٩٦ فى المائة من المقترعين على تنصيب فيصل ملكا على العراق . واعتـــرف كوكس به ملكا (١٩٢١ ــ ١٩٢٣) على أرض تعادل فى مساحتها مساحة ايطاليا أو الفيليبين تقريبا ، ويتألف ثلاثة ارباعها من صحراء رملية وصخرية وأرض عشبية جدباء . ومن ناحية أخرى فهى ارض ما بيـــــن النهرين القديمة ، وهى الوديان الطمية لنهرى دجلةوالفرات ، التى اشتهرت فى التاريخ ، حيث ازدهرت عام ٤٠٠٠ قبل الميلاد حضارة عظيمة وقامت فيها بعد ذلك حدائق وضياع فاخرة ، والمبـــــانى العظيمة لممـــالك بابل واشور ، التى أصـبحت الآن مدفونة تحت الرمال ، وهى ايضا ارض بغداد العربية عاصمة الخـلافة ، وارض حقول الذرة والارز التى تنتشر فوقها اشعة الشمس المحـــرقة ــ وتعتبر منطقة جنوبى العراق من اشد مناطق العالم حرارة ــ وحيث تنمو أشجار النخيل فى كل مكان من أرضها وفى ظلها تنمو اشـــجار البرتقال وعرائش العنب ، ويصدر العراق الى الخارج ثلاثة أرباع كميات البلح فى العالم .

والعراق هى ايضا ارض البترول . وهنا نتعرض لنقطة حساسة ولقد كانت حقول البترول البريطانية الهولنـــدية ، وكذلك والى درجة اقل الحقول التابعة لشركة البترول العراقية التى تديرهـا فرنسا وامريكا ـ وهى تنتج الان ٥ر١ فى المائة من بترول العالم ـ كانت هذه الحقول لها من الاهمية فيما بين الحربين العالميتين ، ما يفوق بكثير اهميتها اليوم . ان ايران هى وحدها التى اصـبحت اغنى من العراق فى الانتاج البترولى ، عندما تم حفر البئر رقم (١) المشهور فى بابا جرجور قرب كركوك عام ١٩٢٧ . والبحرين والمملكة العربية السعودية والكويت ، التى تنتج اليوم من ٨ الى ٩ فى المائة من بترول العالم لم يظهر اسمها فى السوق الدولى قبل عام ١٩٣٤ وعام ١٩٤٦ . وكان خط الانابيب الذى ينقل البترول الخـام من كركوك والموصل الى معامل التكرير فى حيفا وفى طرابلس ، بلبنان ، كان هذا الخط يعد ، بين عامى ١٩٣٤ و ١٩٣٥ ، اضخم خط فى هذه المناطق .

ووجدت العراق نفسها غير قادرة على تحرير نفسها من الغـزو البريطانى ، مثلها فى ذلك مثل الدول العربية العـــديدة التى كانت مشكلاتها البترولية فى ذلك الوقت تهدد بتدميرها . فماذا كان دور فيصل حينذاك ؟ لقد اضطر الى التخلى عن مطامعه الكبرى فى فترة الحيرة بين عامى ١٩١٩ و ١٩٢١ .

أما بعد ان تقلص نفوذه بعض الشىء ، فقد حمل عبء العمل على تحرير العراق من نير البريطانيين . واثبت مقدرته كسياسى حاذق من الدرجة الاولى ، يبلغ من المهارة نفس الدرجة التى كان عليها بن سعود نفسه .

وقام فيصل بارغام الغزاة على التراجع خطوة خطوة دون اراقة

دماء كثيرة ، ومن ثمار جهوده ان العراق تحول من بلد مستعمر الى دولة ذات سيادة معترف بها دوليا والمراحل العديدة التى قطعها العراق نحو الاستقلال تتمثل فى سلسلة من الاتفاقيات ابرمت بين لندن وبغداد . وبمقتضى الاتفاقيات التى وقعت فى الفترة ما بين عامى ١٩٢١ و ١٩٢٦، اصبح للعراق دستور اقر للعراق وضعا وسطا بين المستعمرة والدومنيون .

ان مناطق الموصل وكركوك البترولية فى شمالى العراق ، حيث توجد اطلال نينوى القديمة ، لا تعتبر فى الاصـــــل ملكا لتركيا او العراق . وفى لوزان عام ١٩٢٣ لم يمكن التوصل الى اتفاق بشـــان هذه المشكلة الخطيرة . وكانت النتيجة نشوب نزاع مرير بين تركيا وبريطانيا . الا ان مصطفى كمال لم يكن يرغب فى ادخال اية اقليات جديدة فى تركيا ــ فسكان اقليم الموصل من الاكراد ــ كما انه لايريد الدخول فى حرب بترولية ، ولهذا فقد انسحب من النـزاع . وفى صيف عام ١٩٢٦ تم الاعتراف بملكية العراق للجزء الاكبر من حقول البترول هناك ولكن فيصل ادرك الخطورة الكامنة فى ملكية العراق لها كما ادرك كذلك الامكانيات المتوفرة فى هذه الحقول . وســافر فيصل الى لندن ولم يعد منها الا بعد أن حصل على اتفاق اعترفت بريطانيا بموجبه باستقلال العراق ، وتحدد عام ١٩٣٢ موعـــدا لاعتراف الدول باستقلال العراق . وفى ١٦ نوفمبر عام ١٩٣٠ تـم التصديق على معاهدة بغداد . واصبح الاستقلال حقيقة واقعـة ، وفى خريف عام ١٩٣٢ أصبحت العراق، باعتبارها دولة ذات سيادة عضوا فى عصبة الامم . وعلى سبيل التعويض منحت بريطانيـــا سلسلة من القواعد الجوية فى العراق ، بينما الحق عدد كبير من الضباط البريطانيين فى الجيش العراقى .

وفيما يتعلق بالعالم الخارجي كانت العلاقات بين بريطانيا والعراق هي علاقات بين دولتين مستقلتين . اما في الداخل فقد كان الضباط وكبار المسئولين البريطانيين يشكلون دولة داخل الدولة . فقد كان البريطانيون ما يزالون هناك ، ولكن بما ان البترول لم تفح رائحته ، فان الحكومة العراقية - لم تثر الا اعتراضات قليلة !!

وقد وقع انقلابان عسكريان في العراق ولكنهما لم يسفرا عن حدوث اى تغيير يذكر . فالانقلاب الذى قام به بكر صدقي ، وهو رجل عسكرى وسياسى من دعاة الوحدة العربية ، وكان يتولى قيادة احدى الفرق ، هذا الانقلاب لم تكن له سوى نتيجة واحدة هى حل جميع الاحزاب السياسية ، والثورية التى تزعمها رشيد عالى الكيلانى الموالى لالمانيا فى مايو عام ١٩٤١ ، قبيل الغزو الالمانى لروسيا مباشرة ، اسفرت عن احتلال بريطانيا للعراق من جديد ، وتطهير الجيش من جميع العناصر التى تبدو شديدة الاستقلال ويشك فى وطنيتها المتطرفة .

وكغيره من الاقطار المستعمرة ، رأى العراق فى التغلغل الاوروبى جوانب اخرى بالاضافة الى جوانبه السيئة . وكما يحدث فى الدول الاخرى ، ادى مجيء الفنون التكنولوجية والنظم الاقتصادية الغربية الحديثة الى حدوث منازعات كثيرة ، الا ان ذلك كان ايضا دافعا الى النهوض كما كان بمثابة حصيلة قيمة افادت البلاد عندما تحقق الاستقلال الحقيقى .

لقد تحدثنا عن النفط ، الذى يشكل نصف صادرات العراق ؛ والعراق يحصل اليوم على نصف ارباح البترول . كما انه يوجد فى العراق ، ايضا ، طرق طولها حوالى اربعة الاف ميل ، رغم ان العراق

الصالحة لحركة المرور الحديثة - لا يزيد طولها عن ٢٠٠ ميــل . واصبح فى البصرة مطار دولى يستخدم على خط أوروبا - الشرق الاقصى ، كما يوجد مطار ضخم اخر فى بغداد .

ان اربعة اخماس السكان فى العراق أميون . نصفهم من الفلاحين الحقيقيين ، والنصف الاخر من البدو ، وقبائل الرعاة ، مثل قبائل شمر وظافر وعنيزة . وفى عام ١٩٢٠ تم انشاء مصلحة للرى . وقد حقق المهندسون البريطانيون والعراقيون الشىء الكثير ، رغم انــه اتضح الان ان ما تحقق بعد قليلا نسبيا ، فانه بالمياه وبمزيــد من الجرارات ومزيد من التقدم التكنولوجى ، ومزيد من الدعاية ، يمكن من جديد تحويل ثلث مساحة العراق - وهو بلد أراضيه عشبية - الى حدائق خصبة فاخرة كتلك التى اينعت فى العراق من قديم الزمن لقد ظل الفلاحون ورعاة الماشية فى العراق كغيرهم من الاسيويين ، وبمعنى اخر ظلوا فى غالبيتهم يتبعون الوسائل البدائية فى الزراعة ويعيشون معيشة الفقر الشديد . وفى هذا ، فان العراق لايختلف عن الاراضى العربية الاخرى وعن بقية دول جنوبى وشرقى اســيا حيث تعد مشكلة الفلاح هى المشكلة الخطيرة والملحة بالنسبة لجميع هذه الدول ، سواء المستقلة منها أو غير المستقلة . والوضع هنا مماثل للوضع فى كثير من الدول الاسيوية والاوربية ، حيث وضعت العراقيل امام كل مشروعات الاصلاح الزراعى التحررية نسبيا ؛ لانها اعتبرت مشروعات خطيرة - ونذكر من هذه الدول والمناطق مثلا الصين وكوريا والهند الصينية والملايو وغــــيرها - يؤدى تنفيذها الى تحويل السخط المتزايد من جانب الفلاحين على حياة الفقر اليائسة التى يحيونها الى حركة ثورية لها طابع شيوعى

ولم تظهر اية صحيفة شيوعية فى بغداد قبل عام ١٩٣٩ ، حيث

صدرت الصحيفة الشيوعية الاولى فى ذلك الوقت بصفة سرية . ولم يستطع الشيوعيون أن يمارسوا نشاطهم بصورة علنية الا فى الفترة من ١٩٤١ الى ١٩٤٥ .

كانت الصحيفة تسمى « الشرارة » ، مثل صحيفة « اسكرا » التى اصدرها لينين عام ١٩٠٠ . وكنتيجة للروح التحررية التى سرت فى تلك الفترة ظهر الحزب الشيوعى كأحد الاحزاب الكبرى فى الدول العربية ، وهذا هو السبب الذى جعلنا نخصص مساحة من هذا الكتاب للتحدث عنه

عندما احتل البريطانيون العراق عام ١٩٤١ اعتقلوا كل الموالين للنازية ، واصبحت للشيوعيين، رغم أن نشاطهم كحزب كان محظورا حرية كاملة فى الحركة . وكان واضحا أن البريطانيين يميلون الى تشجيع اى شعور معاد للنازية فى العراق . وظهر عدد من الصحف والمجلات اليسارية . وغزت السوق المطبوعات الروسية باللغات الانجليزية ، والفرنسية والعربية وكانت الصحف الصادرة فى بغداد والتى تمثل مختلف الاراء تحصل على مقالاتها الرئيسية تلغرافيا من موسكو . وفى عام ١٩٤٦ تم من جديد حل الحزب الشيوعى هو والحركات اليسارية الاخرى . وواجه العراق مشكلتين داخليتين توضحان كيف أن البلاد منقسمة من الناحيتين الدينية والعنصرية ، فمن بين سكانها البالغ عددهم خمسة ملايين نسمة يوجد ستمائة الف كردى ، وهم رغم كونهم أيضا مسلمين، يرفضون — لأسباب خاصة بهم — الارتباط بالعرب او بالاتراك وقد قام الأكراد بثلاث ثورات كبرى ضد بغداد بين الحربين العالميتين الأولى والثانية (١٩٢٢ — ١٩٢٤ ، ١٩٣٠—١٩٣١ ، ١٩٣٢) ، وتم سحق الثورات الثلاث بشىء من القسوة ، وفى عام

١٩٣٢ حصل الأكراد على استقلال ذاتي ثقافي محدود ، الا ان الشعب الكردي المقسم بين اربعه دول - فهناك حوالي ٢،٠٠٠،٠٠٠ من الأكراد يعيشون في تركيا وسوريا والعراق وايران - يرغبون في ان تكون لهم دولة خاصة بهم . ويلاحظ ان ٩٥ في المائة من سكان العراق مسلمون، ولكن من الأسباب الأخرى التي تثير الفرقة أن نجد المسلمين منقسمين الى سنيين وشيعة بنسبة خمسه الى ثمانيه وهذا يعني حدوث انقسام في الوحدة الوطنية كما أنه يهدد بتفكك الجبهه المعادية لبريطانيا ، وهو أيضا يقيد ويشل عمليه الخلط بين الدين والسياسة - وهي عملية غير صحية دائما في الداخل والخارج ، كما هو الحال في البلدان العربيه الأخرى .

الا ان الخلافات الداخلية لم تمنع عقد معاهدات عدم الاعتداء عام ١٩٣٧ والتي بمقتضاها اتحدت تركيا والعراق والمملكة السعوديه وايران وافغانستان ، باعتبارها دولا اسلاميه، ضد اي استعمار اجنبي . الا أن الاستعمار الداخلي - المتمثل في الضباط البريطانيين وشركات البترول ، وعملاء المخابرات - بقي على حاله ، ورغم ان العلاقات بين العراق وبريطانيا ظلت طيبة من الناحية الرسميه الا انه كانت هناك نواح تثير التصادم بينهما وقد اتضح ذلك عندما توفي الملك غازي الأول (١٩٣٣ - ١٩٣٩) وقد خلفه فيصل الثاني الذي ولد عام ١٩٣٥) اثر حادث تصادم وقع لسيارته في ضواحي بغداد . وقد حدثت اضطرابات شديدة حينئذ والقى المتظاهرون الحجارة على القنصل البريطاني اعتقادا بأن القنصل هو الذي دبر الحادث الذي راح الملك ضحيته، وان يكن فيما يبدو ليس هناك اى اساس ، لهذا الاتهام

وقد ظهر من رد الفعل تجاه موت الملك أن العراقيين شعروا بأن استقلالهم محدود ، وأن البريطانيين لا ينوون ترك العراق من تلقاء أنفسهم وخاصة كركوك والموصل وحقول البترول . فان كان أحد في شك في هذا ، فان عليه ان يتذكر الانقـــلاب الذي قام به رئيس أركان حرب الجيش العراقي في شتاء عـام ١٩٥٢ ، فقد كان بمثابة (مخلب القط البريطاني) كما وصفه صحفي عراقي مشهور في احدى الصحف البريطانية .

سوريا ولبنان

كنتيجة لطرد فيصل أصبحت سوريا بصورة نهائية أرضا واقعة تحت الانتداب الفرنسى ، وكان هذا يعنى بالنسبة للفرنسيين أنها أصبحت مستعمرة • وللعلم ، وتجنبا لسوء الفهم من الناحية الجغرافية ، علينا ان نذكر أن سوريا الفرنسية عام ١٩٢٠ لم تكن لها نفس الحدود نفسها التى أصبحت للجمهورية السورية فيما بعد • فقد كانت تضم قبل أى شيء آخر كل أراضى الجمهورية الحالية التى تقطنها أغلبية ساحقة من العرب ومن بين سكانها البالغ عددهم ٤٫٠٠٠٫٠٠٠ نسمة يوجد ٨٠ فى المائة مسلمون ، و٨ فى المائة مسيحيون ، و٣ فى المائة دروز وثلاثة أرباع السوريين من الفلاحين الذين يعيشون فى المناطق الغربية ، من البلاد وفى أعلى الفرات ، حيث يزرعون القمح والشعير والقطن والنخيل والكروم والمشمش والليمون وما شابه ذلك من الفاكهة • وكما هو الحال فى العراق ، وبسبب عدم استخدام وسائل الرى ، فان ٧٠ فى المائة من مساحة سوريا تعد أراضى عشبية وصخرية ورملية لايعيش فيها سوى البدو مع قطعانهم من الماشية والجمال •

والجزء الثانى من الأراضى التى كانت تضمها سوريا هولبنان الذى يبلغ عدد سكانه ١٫٥٠٠٫٠٠٠ نسمة نصفهم مسلمون والنصف الآخر مسيحيون ، وهى بلد زراعى أيضا مثل سوريا

وتقطعها جبال لبنان التى تغطيها الثلوج • وتعتبر لبنان هامة من وجهة النظر الاقتصادية ، نظرا لوجود معمل تكرير البترول الضخم فى طرابلس وهو المعمل الذى يصل اليه جانب من البترول العراقى . والجزء الثالث يتألف من لواء الاسكندرونة وانطاكية . وهذا الجزء كان يقطنه فى غالبيته الأتراك وقد سلم الى تركيا عام ١٩٣٩ .

وقد حدثت اضرابات مستمرة فى سوريا بين الحربين العالميتين الاولى والثانية . فان الفرنسيين ، كما ذكرنا مشهورون بأنهم مستعمرون سيئون ، ولاينطبق هذا عليهم فى الواقع من حيث هم فنيون وناقلون لأساليب التقدم الحديثة ، وانما ينطبق عليهم فى جميع المجالات الأخرى التى تجعل الحكم الاستعمارى محتملا ولو بعض الوقت وبمقارنة العلاقات البريطانية العراقية بالعلاقات الفرنسية السورية نجد أن الأولى حسنة نسبيا بينما الثانية سيئة قطعا ، وقد لجأ الجنرال جورو ، أول مندوب سامى فرنسى فى سوريا ، الى حكم سوريا كأحد ملاك الأراضى الاقطاعين بكل ماتحمله العبارة من المعانى والصفات السيئة . وفى صيف عام ١٩٢٠ قام بمضاعفة مساحة أراضى لبنان الخصبة ومنحها دستورا خاصا ، وقسم بقية البلاد الى أربعة اجزاء ، فكانت سوريا من الناحية الرسمية تعتبر بمثابة اتحاد فيدرالى يضم أقطارا مستقلة ذاتيا • وكانت سوريا فى الواقع مستعمرة أريد التغطية على حقيقتها بهذه الوسيلة • وكانت باريس تلجأ ، كلما رغبت الى اثارة احد هذه الاقطار على القطر الآخر ، فكانت سوريا دولة بوليسية تقوم فيها المصالح التجارية الفرنسية بالتهام كل شىء كالجراد ، وحاول الفرنسيون كتم أنفاس الثقافة الوطنية

عن طريق الكتب الموجهة توجيها معينا ، والصحف المراقبة • وكان الفرنسيون القلائل فى سوريا الذين توجد لديهم افكار حديثة ، يضيعون وسط فيض من الموظفين الفرنسيين ، الذين كانت لديهم خبرة ، بسبب اشتغالهم من قبل فى الدار البيضاء والصحراء ووهران وتونس ، فى أساليب قمع الشعوب العربية ، وتجاهل رغبتها فى التحرر •

لقد كان الجو فى جميع أنحاء البلاد عاصفا ولم تهدأ العاصفة الا فى صيف عام ١٩٢٥ عندما عين (ساريى) مندوبا ساميا • وفى ١١ يوليو اعتقل عدد من الدروز فى دمشق عندما كانت المحادثات دائرة بين كبار المسئولين والعرب • وفى صبيحة يوم ١٨ يوليو ثار الدروز هم والعرب الاخرون بزعامة سلطان باشا ، واحتلوا القرى فى جنوبى سوريا وهاجموا المدن . وقد لجأت السلطات العسكرية الفرنسية الى عرض جثث رجال المقاومة فى الشوارع كنذير ، وكانت نتيجة ذلك ان عمت الثورة الشعب كله (١٤ اكتوبر) وعندئذ فر الفرنسيون من دمشق ولم يعودوا اليها الا بعد ان قامت مدفعيتهم بقصف المدينة بقذائفها لمدة يومين ، وساهمت الدبابات والطائرات القاذفة للقنابل فى تحويل جزء من المدينة التاريخية الى حطام . وقامت ثورة أخرى (٨و٩ مايو عام ١٩٢٦) ولكنها قمعت هى الاخرى وكانت الطائرات بمثابة سلاح جديد وخطير فى ايدى الاستعمار وان استخدام الطائرات فى القاء قنابل الغاز السام فى حرب الحبشة ليعطينا مثلا شهيرا وصاعقا ، للغرض الذى استخدمت فيه هذه الطائرات • ولقد استسلم الدروز فى صيف ١٩٢٧ وفر زعماؤهم الى شرق الاردن • واثارت الثورة السورية الاحرار فى

فرنسا وفي كل مكان آخر ، خاصة وان في ذلك الوقت كان البربر في الريف تحت زعامه الامير عبد الكريم يدافعون بنجاح عن حريتهم في جبال مراكش ضد ٠٠٠و٢٥٠ من الفرنسيين والاسبان

عندئذ صارت باريس اقل عنادا . وأدركت انه يجب ان تحصل سوريا على دستور مماثل للدستور الذى حصل عليه العراق وأن تتمتع بنفس امكانيات التقدم التى اتيحت للعراق ، وربما يكون ذلك نتيجة للحيرة الواضحه التى انتابت الفرنسيين ولأنه وجد ، الى حد ما ، أن التوصل الى اتفاق موقت ربما يودى الى نتيجة • وقد قام هنرى بونسو . المندوب السامى الجديد (١٩٢٦ — ١٩٣٣) بتصفيه جو قليلا واعترف — من حيث المبدأ على الاقل — بحق تنفيذ الرغبة فى الاستقلال . وقام باستطلاع وجهات نظر العرب • وعندما وجد ان الكثير جدا من وجهات النظر هذه عربية والقليل جدا منها فرنسية قرر اجراء مفاوضات ، وكانت النتيجة قيام الجمهورية السورية ، جمهورية صورية تحمل الخاتم الاستعمارى التقليدى • وبالاضافة الى ذلك لم تكن فى البلاد طرق صالحة تربط المناطق الداخليه بالبحر كما لم تكن فيها اية موانىء ، وقد حرمت اجود اراضيها الزراعية لان الفرنسيين قاموا بتحويل المناطق الساحلية التى تشمل لبنان فى الجنوب واللاذقية فى الشمال الى جمهوريتين مستقلتين مزعومتين (١٩٢٦ — و١٩٣٠) • وهكذا تم تقسيم الاراضى السورية من الناحيتين الجغرافية والأدبية • وكما هو الحال فى البقاع المستعمرة الاخرى أدت التنازلات الصورية من جانب فرنسا الى خلق جو من المعارضة بين دعاة المقاومة كمبدأ ، ودعاة الولاء للحكم الأجنبى • وعندما حل عام ١٩٣٣ كانت فترة التوفيق قد ولت • وبعثت فرنسا

بدامين دومارتيل كمندوب سام الى سوريا ، وكان رجلا من طراز كتشنر أو ليوتي ولكنه كان موهوبا الى حد كبير وقد أحضر معه مشروع معاهدة تشبه المعاهدة التى وقعتها بريطانيا مع العراق عام ١٩٢٦ ، فيما عدا أن مشروع المعاهدة التى وضعتها فرنسا لسوريا أقل كرما الى حد كبير . كما أنها تعرضت فقط للمناطق الداخلية في سوريا دون أن تذكر لبنان واللاذقية وقام مارتيل بحل البرلمان الذى لم تكن له سوى اهمية ثانوية « نوفمبر ١٩٣٤) وأعلن أن السياسة لم تعد تروق له وانه سيكرس نفسه بكل بساطة لبذل الجهود من اجل التوسع الاقتصادى فى البلاد ولكنه لجأ فى يناير عام ١٩٣٦ ولاسباب تتعلق بالامن ، الى اعتقال الزعماء العرب واغلاق مبنى الحزب الوطنى .

وكان هذا شيئا كثيرا لايحتمله السوريون فكان ردهم على ذلك القيام باضراب عام ناجح ، وخوض المعارك فى الشوارع ، وانتشار المقاومة السلبية ، على طريقة غاندى ، فى كل مكان ، فكان أن خضعت الادارة الفرنسية وحصلت البلاد الثائرة على وزارة حقيقية (٢٣ فبراير) ، ووضع المندوب السامى الفرنسى خطة جديدة أكثر شمولا وتوجه وفد رسمى من سوريا الى باريس وفى اول مارس توقف الاضراب دون حدوث أية اضطرابات . وبدا أن العاصفة قد هدأت ، وخاصة بعد ان تولت حكومة الجبهة الشعبية برئاسة ليون بلوم الحكم فى فرنسا (٥ يونيو ١٩٣٦) وقد اشترك فى هذه الحكومة الشيوعيون : والاشتراكيون والبورجوازيون اليساريون حتى يتمكنوا من مواجهة التهديد الفاشستى داخل فرنسا وخارجها وكانت هذه الحكومة مقيدة اليدين من جراء المعارضة من جانب الراسماليين والرجعيين ، ولكن كان لديها نوايا

حسنة فيما يتعلق بسوريا وفى ٩ سبتمبر عام ١٩٣٦ وقع اتفاق بحل وسط بين فرنسا وسوريا • وتقرر بموجب هذه المعاهدة أن تصبح سوريا حرة خلال ثلاث سنوات وأن تنضم الى عصبة الامم كدولة حرة ، وحصل لبنان على معاهدة مماثلة فى نوفمبر • وفاز الوطنيون بالاغلبية الساحقة فى أول انتخابات حرة حقيقية تجرى فى سوريا وبذلك تأكدت الرغبة الشعبية فى الاستقلال •

ولم يكن أحد يزعجه أمر المائة الف كردى الذين فروا من العراق فيما عدا الطيارين الذين صدرت اليهم الأوامر فى صيف عام ١٩٣٧ بالقاء القنابل على مخيمات وجماعات الفارين ، وكان هؤلاء الأكراد قد طالبوا باستقلال مماثل للاستقلال الذى حصل عليه ثوار سوريا الا ان الصورة سرعان ماتغيرت • ففى اكتوبر عام ١٩٣٨ سقطت حكومة الجبهة الشعبية فى فرنسا وعادت الرجعية الى الحكم • ولم تعد حكومة باريس تدافع عن نفسها ضد خطر الفاشية العالمية ، ولكنها فى الواقع أبدت هى نفسها اتجاها نحو الفاشية • وفى يناير عام ١٩٣٩ ، عندما قام الفاشيون الأسبان التابعون لفرانكو مع قواتهم من جنود الموريشان المرتزقة والجيش الايطالى والألمانى بالانقضاض على برشلونة ، آخر معقل للحكومة الأسبانية ، وعندما كانت ألمانيا الهتلرية تحشد فرقها استعدادا لضم تشيكوسلوفاكيا الى أراضيها ، فى ذلك الوقت أعلن بيو ، المندوب السامى الفرنسى الغاء فرنسا لمعاهدة عام ١٩٣٦ وعندئذ حدثت اضطرابات وقلاقل بحيث يمكن القول بأن ثورة قد شبت فى سوريا وبعد مضى سبعة اشهر نشبت الحرب فى أوروبا وحشدت فرنسا جيشا ضخما ، معدا اعدادا حديثا ، فى سوريا ، وتوقفت المقاومة عندئذ ، وبعد استسلام بيتان (٢٢ يونيو عام

١٩٤٠) قام الألمان بتقسيم فرنسا الى منطقة محتلة ومنطقة زعموا انها حرة ونصبوا فيها حكومه متعاونه معهم برئاسة بيتان في فيشي • واستجاب بيو لغرائزه الرجعية فاعترف بحكومة فيشي • وبالتالى اعترف بالاستسلام ويدا أن الضباط الألمان يترقبون تسريح جزء من الجيش الفرنسي في سوريا ، وان الالمان يريدون ان يحيلوا سوريا الى قاعدة وحينئذ حل الجنرال الفاشي المتعصب دينتز محل بيو كمندوب سام فى سوريا •

وكان هذا بالنسبه لتشرشل تطورا بالغ الخطورة • وفي يونيو عام ١٩٤١ تدخلت بريطانيا في كل من العراق وسوريا وقامت بريطانيا هي وقوات فرنسا الحرة باحتلال سوريا • وأعلن كاترو ، قائد قوات فرنسا الحره فى الشرق الاوسط ، اعتبار سوريا ولبنان مستقلتين من حيث المبدأ ولكنهما لن تصبحا مستقلتين فعلا الا بعد انتهاء الحرب ومع ذلك فقد طالب كل من البلدين الواقعين تحت الانتداب . باستقلاله فورا (فبراير ١٩٤٣)وعندئذ قام كاترو باعتقال أعضاء الحكومة اللبنانية مما اثار موجة من الاستنكار فى جميع انحاء العالم الحر • وكانت الولايات المتحدة قد اعترفت من قبل بسوريا ، وعلى الرغم من محاولة كاترو التشدد في الدفاع عن موقفه ، فقد اجبر على التراجع قليلا • • واعترفت اللجنة الوطنية الفرنسيه تحت رئاسة الجنرال ديجول بالاستقلال المطلق لسوريا ولبنان اعتبارا من أول يونيو عام ١٩٤٤، وكانت تلك هي بدايه عهد الاستقلال بالنسبة لسوريا ولبنان • وبعد مضى يوم أو يومين قام الحلفاء بغزوهم الضخم لنورماندى وتحرير فرنسا نفسها وفي عام ١٩٤٦ تم جلاء كل القوات

البريطانية والفرنسية ٠وقد استغرق النضال المرير من أجل الحرية فترة ربع قرن ٠

شرق الاردن

ان تاريخ شرق الأردن بين الحربين العالميتين هو بمثابة تاريخ لعملية تحويل بقعة تحررت من تركيا الى مايمكن ان نطلق عليه ولو اسميا على الأقل ، دولة عربية مستقلة ٠ عندما تحطمت الامبراطورية التركية ، قام البريطانيون فى شتاء عام ١٩١٩ بالجلاء عن شرق الأردن أول الأمر فتولى عبد الله حكم البلاد واصبح اميرا لها ٠ وفى مارس عام ١٩٢١ ، وعندما كان فيصل يمر بأراضى شرق الأردن فى طريقه من مكة الى مملكته فى العراق ، رأى سلاح الطيران الملكى البريطانى أن من الأفضل شغل الفراغ داخل شرق الأردن ، خاصة وان الدول المستعمرة وضعت شرق الاردن منطقة تحت الانتداب البريطانى ٠ وفى الوقت نفسه اجتمع ونستون تشرشل ، وزير المستعمرات البريطانى ، مع ت٠ا٠ لورنس واخرين فى القاهرة لتحديد السياسة البريطانية تجاه الدول العربية وكانت نتيجة محادثاتهم هى الاعتراف بعبد الله أميرا على شرق الأردن (١ ابريل عام ١٩٢١) وفى مايو عام ١٩٢٣ حصل شرق الاردن على استقلال ذاتى أوسع نطاقا والسبب فى هذا الكرم البريطانى هو انشرق الاردن كان فى ذلك الوقت جزءا منفلسطين بل انه فى الواقع يعد بمثابة الأراضى الداخلية لفلسطين ٠ ولم يرد شىء فى خطط التقسيم التى وضعها الحلفاء واثناء الحرب بشأن الحدود بين المنطقتين ٠ومع ذلك فاننا نجد البريطانيين ، الذين أصبحوا على مايبدو ، يتوقعون ان يؤدى النزاع بين اليهود والعرب

الى تشكيل خطر على الامبراطورية البريطانية ؛ نجدهم عندئذ يستعدون لتقسيم المنطقة كلها الى قسمين ، بقصد كسب عبد الله الى جانبهم من ناحية والحد من الهجرة اليهودية الى فلسطين من ناحية أخرى . ولقد ظل وعد بلفور قائما لم يمس الا انه كان على اليهود ان يدركوا أن الارض الموعودة قد انكمشت قليلا .

والاعتبار الثانى هو أن الاعتراف بعبد الله كان بمثابة ضربة للمطامح التوسعية عند ابن سعود ، عدو عبد الله وعدو البيت الهاشمى . وفى صيف عام ١٩٢٢ وصل بن سعود الى الحدد الشمالية الحالية لمملكته حيث كانت تطل عليه ثلاثة أقطار تحت النفوذ البريطانى ، وهى شرق الاردن والعراق والكويت ، ولربما لم تكن للصحراء الواقعة فى شمال شرقى (شرق الاردن) قيمة اقتصادية ، ولكنها كانت بمثابة خط مواصلات يستخدمه البريطانيون فى التوجه الى العراق وما وراءها : يران والهند ـ وباكستان ، فكانت لها اهمية كبيرة من هذه الناحية . وقد امتد عبر هذه الصحراء منذ عام ١٩٣٥ خط انابيب البترول الذى يبدأ من كركوك وينتهى فى حيفا .

ورغم انه حدثت تغييرات فى شرق الأردن ـ فقد مدت فيه مثلا عدة طرق حديثة ، فانه لم يطرأ اى تغيير على بقاء الضباط البريطانيين فى شرق الاردن أو ولاء عبد الله للندن . وفى ٢٠ فبراير عام ١٩٢٨ وكنتيجة للاحداث التى وقعت فى العراق وشرق الاردن ، فقد تم الاعتراف باستقلال شرق الأردن من حيث المبدأ ، واصبح الميجور البريطانى جون باجوت جلوب ، الذى اشتهر باسم جلوب باشا (ولد عام ١٨٨٧) قائدا للقوات الاردنية ، واعتبر جلوب نفسه بمثابة لورنس آخر ، فاندمج فى الحياة العسكرية فى

الأردن وقام بتشكيل الفيلق العربى ، الذى ظل فترة طويلة القوة العسكرية العربية الفعالة فى الاردن •

وعندما هبت عواصف الحرب على أوروبا وافريقيا فى صيف عام ١٩٤٠ كان شرق الأردن هو الدولة العربية الوحيدة التى قامت بدور نشط فى الحرب الى جانب بريطانيا • ولا شك انها كانت فى ذلك الوقت مازالت أرضا بدائية لم تدخلها الاساليب الحديثة سواء فى الناحية الاجتماعية او الناحية الزراعية ، كما أنها لم تكن متحررة من الوصاية الأوروبية الا انها كانت على درجة من الوعى الذاتى وقد قاتل جنود الفيلق العربى كالأسود ضد الايطاليين والألمان الذين كانوا يهددون مصر وقناة السويس ، الطريق الحيوى بالنسبة لبريطانيا •

فلسطين

فى صيف عام ١٩١٧ كانت تلال ووديان فلسطين تشكل اقليما تركيا ، كان بمثابة شبه مستعمرة ثائرة فى جبهتها الأمامية على الأقل ، كما كان الاقليم يتطلع الى تحقيق (الحرية لكل العرب) وهو الشعار الذى وضعه البريطانيون للثورة المعادية لتركيا فى الحجاز فى يونيو عام ١٩١٦ • لقد كان الاقليم باكمله اقليما عربيا •

وفى ٢ نوفمبر عام ١٩١٧ وقبل استيلاء القوات البريطانية والعربية على القدس بعدة اسابيع حيث بدأ الحلم يلوح وكأنه حقيقة ، عندئذ بعث أ. ج. بلفور وزير خارجية بريطانيا بوثيقته المشهورة الى باريس وهى عبارة عن خطاب مكتوب على الالة الكاتبة

ويضم خمســة عشر سطرا ، موجهــة الى بارون دى روتشيلد اليهودى الذى قام بتمويل الكثير من المستعمرات اليهــودية فى فلسطين وابرز العبارات التى وردت فى هذا الخطاب : (ان حكومة صاحب الجلالة تنظر بعين العطف الى مسالة انشاء وطن قومى للشعب اليهودى فى فلسطين وانها ستبذل قصاوى جهدهـا لتسهيل تحقيق هذا الهدف على أن يكون مفهوما فى وضوح أنه لن يحدث ما من شانه المساس بالحقوق المدنية والدينية للجماعات غير اليهودية الموجودة فى فلسطين أو حقوق اليهود ووضعهم السياسى فى اية دولة اخرى •

وعرف أمر هذا الخطاب وهو يعرف فى الدول العربية ٠٠ جميعا الآن باسم (تصريح بلفور وقد صرح لويد جورج رئيس الوزارة البريطانية ، عام ١٩٣٧ بان هذا الخطاب نشر (بقصد الدعاية) وليس ثمة سبب يدعو الى عدم تصديقه فى هذا القول فقد طبـع هذا الخطاب على هيئة منشور ووزعت منه الالاف فى المانيا والنمسا وروسيا ، وكانت الطائرات تسقطه من الجو فى بعض الأحيان • ونظرا لانه كان يعيش فى هذه الدول عدد كبير من اليهــــود الأوروبيين ، فان هذا العمل يبدو عملا دعائيا بريطانيا ناجحا • وقد صورته الدعاية فى ذلك الوقت أمام جميع الدول الديمقراطية على انه دليل ساطع على المروءة البريطانية نحو شعب طرد من أرضه وأصبح جنسا مكروها ومضطهدا فى أراضى الدول الاخرى .. وكان هناك اعتقاد بأن وعد بلفور سيكون له تأثير كبير بصفة خاصة فى الولايات المتحدة التى مر عليها وقت طويل قبل أن تنضم الى الدول المعادية لالمانيا (أبريل ١٩١٧) •

وقبل شتاء عام ١٩١٨ كانت الجيوش التركيـة قد طردت من

جميع الدول العربية •• وكانت فلسطين وشرق الاردن ، مثلها فى ذلك مثل كل بلاد شبه الجزيرة العربيه ، قد وقعت تحت الانتداب البريطانى ، رغم تناقض هذا الوضع مع كل الوعود التى اعطتها بريطانيا •• ولقد تبين حينداك نسف أن بريطانيا سقطت فى حوص مزروع بالشوك •• ومن المؤكد من وجهة النظر السياسية ، ن هذه المنطقة لم تكن أرضا (تفيض باللبن والعسل) •• ففيما عدا اليهود البالغ عددهم ٥٠ الف شخص لم تكن توجد اية اقليات فى فلسطين •• ولو لم يصدر ذلك الوعد اللعين ، لكان من الممكن جدا أن نرى فلسطين وقد نضجت تدريجيا حتى تنال استقلالها مثل العراق وشرق الاردن •

ولقد شعر كل من اليهود والعرب فى الظروف القائمة حينذاك انهم خدعوا ، فكل منهما لم يحصل على حريته وكلاهما لم يصبح له وطن خاص به ، واذ كان العرب يكنون شعور العداء نحو المهاجرين القادمين من اوروبا ؛ فقد اضطر اليهود الى التسلل كاللصوص تحت جنح الظلام داخل بيت ظنوا أنه بيتهم ••

وكان دفاع بلفور عن الوعد الذى اعطاه دفاعا صبيانيا ومضطربا من وجهة النظر الاجتماعيه •• فقد القى بلفور خطابا فى قاعة البرت الملكية بلندن عام ١٩٢٠ . تحدث فيه عن فلسطين باعتبارها « قطعة صغيرة من الارض آمل ألا يضن بها العرب على شعب عاش فيها عدة قرون » •• وهو دفاع مشهور ••

ولقد عاش فوق هذه الأرض التى يحوطها الغموض والتى لا تزيد مساحتها فى الواقع عن ١ ٪ من المساحة الاجمالية للبلاد العربية ، حوالى ١٥ فى المائة من مجموع أبناء الشعوب العربية ، وهم السبعمائة الف عربى الذين ولدوا فى فلسطين •

الا أن تاريخ فلسطين بين الحربين العالميتين كان ، كمـــا هو متوقع ، بمثابة صدام رهيب بين العرب والمهاجرين ، وهو مايروى لنا كيف أصبحت فلسطين نواة لدولة اسرائيل الحالية ، بالرغم من كل الدماء التى سالت ، وزوال الأوهام التى عاش فيها الجانبان ، وبالرغم من خطط حكومة لندن والوعود التى أعطتها وكل المعارضة التى أثيرت .. وان المفتاح الذى يؤدى بنـــا الى الوقوف على كل التطورات التى حدثت ، هو ، على سبيل المثال ، زيادة عدد السكان اليهود ، ولهذا فاننا نعطى هنا بعض الحقائق والارقام .

فى عـــام ١٩٢٢ كان فى فلســـطين حوالى ثمانمائة الف من السكان ، وفى عام ١٩٤٢ أصبح عدد السكان يزيد عن ١٫٦٥٠٫٠٠٠ نسمة . وارتفعت نسبة السكان اليهود من ١٠ الى ٣١ فى المائة كنتيجة للهجرة .. وفى الفترة بين عامى ١٩٢٢ و١٩٤٢ وصـــل الى فلسطين ٣٥٠ ألفا من اليهود ، جاء أغلبهم من أوروبا الشرقية . وكان معدل وصول اليهود أول الأمر يتراوح بين سبعة آلاف وعشرة آلاف يهودى سنويا ، وهو رقم صغير نسبيا .. الا أنه فى الفترة ما بين ١٩٢٥ و١٩٢٦ وفى الفترة ما بين ١٩٣٣ و١٩٣٧ تدفـــق الفيضان الهائل من المهاجرين فوصل ٦٥ ألف يهودى اغلبهـــم من روسيا وبولندة و١٧٥ ألف يهودى من المانيا وبولندة حيث كانت تجتاح هذه البلدان موجة رهيبة من العداء ضد السامية .

وقد جاءت غالبية الاسرائيليين من الغرب وبخاصة من اوروبا الشرقية ، وهى ظاهرة فريدة تحدث فوق أرض آسيوية .

وكان عدد اليهود الذين وفدوا من مختلف البلدان بالنســـبة للمجموع الكلى للمهاجرين كما يلى :

بولندة : ٣٠ فى المائة ، رومانيا والبلدان الاخرى فى جنوب شرقى اوروبا : ٢٠ فى المائة ، ألمانيا : ١٥ فى المائة . الدول العربية بما فيها مصر ، بالاضافة الى تركيا وايران : ١٢ فى المائة ، روسيا ٥ فى المائة ، وشمال أفريقيا : ٥ فى المائة .

ولم يصبح عدد اليهود الآسيويين يشكل غالبية من المهاجرين الا منذ عام ١٩٤٨ اذ انه فى الفترة بين الحربين العالميتين لم يهاجر الى فلسطين سوى ٢٠ الفا من يهود آسيا والشمال الافريقى ..

ولم يكن المهاجرون القادمون من اوروبا يفدون الى فلسطين باعتبارها مستعمرة كما هو الحال فى البقاع الآسيوية الاخرى .. وانما وفدوا ضالين منبوذين ، وفارين يبحثون عن مكان يأويهم عند ساحل أى بلد اجنبى ولو كان ذلك دون موافقة سكان هذا البلد ..

لقد ظل اليهود طوال ١٨ قرنا ممنوعين من الاستيطان فى كثير من البلدان .. وعندما جاءوا الى فلسطين حينذاك لم تكن لهم أول الأمر لغة للتخاطب خاصة بهم ، ولم يكونوا يمتلكون قطعة واحدة من الأرض ، فالأرض يملكها العرب كما أن اليهود لم يكونوا يعرفون من اللغة العبرية القديمة سوى الفى كلمة على أكثر تقدير ... لهذا انشئت جامعة عبرية فى القدس ، بناء على اقتراح حاييم وايزمان لنشر اللغة العبرية بين اليهود ... وقد ولد وايزمان فى روسيا عام ١٨٧٤ ، وكان أستاذا مشهورا فى الكيمياء فى مانشستر ولندن ، وتولى فيما بعد رئاسة المنظمة الصهيونية العالمية (من

١٩٢٠ الى ١٩٣١) ، ثم رأسها من جديد ابتداء من عام ١٩٣٥ ؟ واصبح آخر الامر رئيسا لجمهورية اسرائيل (١٩٤٨–١٩٥٢) ..

وقد استوطنت اغلبية المهاجرين المدن في عـــام ١٩٣٠ ، كان نصف السكان اليهود يعيشون في تل ابيب ويافا وحيفا والقدس ، و٢٠ في المائة فقط يعيشون في القرى والمستعمرات الزراعية .. واصبحت تل ابيب ، التي كانت عام ١٩١٩ قرية يقطنهـــا ٢٠٠٠ شخص ، أكبر مدينة في البلاد وبلغ عدد سكانهـــا ١٥٠ الف نسمة عام ١٩٣٩ و٣٥٠ الف نسمة عام ١٩٥٠ . انها المدينـــة الوحيدة في العالم التي تعتبر يهودية تماما .

الا أن الكثيرين من المهاجرين ادركوا في وقت مبكر جدا ان وجود مجموعة من المدن بدون ارض وبدون مزارعين لا يشكل دولة معترف بها .. وفي عام ١٩١٩ اصبحت المستعمرات الزراعيـــة تمتلك حوالى مائة ألف فدان من الارض المنزرعة .. وفيمـــا بين الحربين العالميتين كان « الافنديات » العـــرب يبيعون الاراضي التي يمتلكونها لليهود . وفي عام ١٩٣٩ اصبح المهـــاجرون الذين استوطنوا البلاد كمزارعين يمتلكون مساحة تبلغ تقريبا أربعة امثال هذه المساحة ، أي ما يعادل ربع مجموع مساحة الاراضي الصالحة للزراعة .. وكان الصهيونيون سيرون في ثلاثة خطوط ..

اولا – كان المبدأ هو الاقتصار على استصلاح الأراضي البور ، وبمعنى آخر زراعة الاراضي التي لا حاجة لاخراج المزارعين العرب منها .. وقد اعترض على ذلك البريطانيون وكذلك العرب ، ونعني بهم العرب المستأجرين للارض ، وليس ملاك الأراضي الذين وصلوا الى الغنى وهم يعيشون معيشة خاملة ..

والخط الثانى والثالث : هما اعتبار كل الأراضى التى يمتلكها المزارعون اليهود ملكا جماعيا لكل الشعب ، كما أن تشغيل العمال العرب كان امرا نادرا •• وكان المستعمرون يملكون الحرية المطلقة فى ادارة مزارعهم وقراهم كما يحلو لهم ••

وبطبيعة الحال كان العمال الاوروبيون الذين حضروا الى البلد الجديد هم من العمال الذين لا تربطهم بأوروبا مصالح اقتصادية . وقد أصبحت (الهسترادوت) ، وهى المنظمة التى تجمع كل العمال تضم نصف عدد السكان اليهود فى فترة قصيرة •و •كان زعماء الهسترادوت يرتبطون بعلاقات وثيقة مع حزب العمال البريطانى ومن بين هؤلاء الزعماء : ديفين بن جوريون ، الذى تولى رئاسة الوزارة فيما بعد ، وموشى شرتوك ، الذى تولى منصب وزير الخارجية فيما بعد ، وأخيرا وليس آخرا ، حاييم أرلوسوروف •

إن هذه التطورات التى تمت كلها فى فلسطين حتى ذلك الوقت قد جاوزت ما قام به البريطانيون والاحداث السياسية بصفة عامة •• الا ان التاريخ الاجتماعى والسياسى يعتبر كلا واحدا ولا يمكن لأحد المنصفين أن يتغاضى عنه دون أن يؤثر فى الكل ويشوهه ••

فعندما تولت بريطانيا الانتداب على فلسطين فى ابريل عام ١٩٢٠ ، بدأت لندن تفسر وعد بلفور فى أضيق الحدود الممكنة •• فلم يطبق هذا الوعد على شرق الاردن •• وقد أصبح هذا التفسير أمرا واقعا بالاعتراف بعبد الله اميرا على شرق الاردن (١٩٢١) •• ولقد كانت الهجرة اليهودية أول الأمر ضعيفة مثلما كانت المقاومة العربية •• وقد رفض العرب أن يشاركوا فى الادارة فتولى

المندوب السامى البريطانى الحكم) •• ولم يتخذ رد الفعل من جانب العرب طابعا جادا قبل عام ١٩٢٩ •• ان الحرم الشريف ، وهو مكان اسلامى مقدس ذو جدران مرتفعه ، يقـــع فى أقصى الطرف الشرقى من القدس فى مواجهة جبل الزيتون ، ويشــكل جانب من جدارة الجنوبى الشرقى حائط المبكى ، وهو مكان خاص يحج اليه اليهود •• ويعتقدون أنه مبنى بأحجار عديدة من هيكل سليمان ••

وكانت النتيجة أن بدأ العرب فى أغسطس عـام ١٩٢٩ حربا أهلية صغيرة قتل خلالها مائتا شخص •• وتصرف البريطانيون وفقا للوضع الذى كانوا فيه ، أى كدبلوماسيين وقعوا فى نفس الشباك التى نصبوها ، وراحوا يبذلون جهودا كبيرة لتهدئة مشاعر العرب وكانت النتيجة هى فرض القيود على الهجرة اليهودية •• كما كان البريطانيون يشعرون أيضا بالانزعاج لوجود كميات من الأسـلحة فى المستعمرات اليهودية ، معدة للاستخدام ، كما حدث فى أماكن عديدة فى الفترة ما بين عامى ١٩٢١ و١٩٢٤ •• والى جانب هذا ، وقع لورد دسفيلد (سيدنى ويب) وزير المستعمرات ، على كتاب أبيض يلفت النظر فيه الى الرغبة المتزايدة لدى العرب فى امتــلاك الأراضى وأوصى بمنع شراء أراضى العرب ، لفتـــــرة من الوقت ، وكانت الحكومة البريطانية ، على ما يبدو ، تعتزم الالتزام بهــذه السياسة ، لولا استفحال موجة الارهاب المعادية للسامية فى ألمانيا الفاشية وبولندة •• فقد سمح البريطانيون بدخول عدد ضخم من الفارين الى فلسطين •• وقد وصل الى فلسطين ١٧٥ ألف يهودى فى الفترة ما بين ١٩٣٥ و١٩٣٧ •• وفى الوقت نفســـه تأثرت المصالح الاقتصادية البريطانية المتمثلة فى خـــط أنابيب البترول الممتد من كركوك الى حيفا ، وفى عملية انشاء معمل ضخم لتكرير

البترول فى حيفا (١٩٣٤ ، ١٩٣٥) .. فكان هذا أحد الأسباب التى جعلت المقاومة العربية تتحول الى صدام مسلح له عواقبه فى المجال الدولى .. فالألمـــان ، والايطاليون أيضـــا ، الذين كانوا يستعدون لغزو الحبشة ، نظروا فى نهم الى الدول العربية وقناة السويس ، وراحوا يرسلون الأموال والأسلحة الى العـــرب سرا ، كما فعلت سوريا والعراق ، وأخـــذوا يحرضون العرب ضـــد البريطانيين عن طريق الدعاية الاذاعية .

وعندما نظمت المقاومة العربية تحت قيادة اللجنة العربيـــة العليا فى ابريل عام ١٩٣٦ ، كانت فلسطين تمزقها حينئذ الحرب الأهلية وتجتاحها الثورة التى لم تتوقف الا بنشوب الحرب العالمية الثـــانية ..

وأنشا اليهود لأنفسهم جيشا غير مشروع ، وهو الهـــاجاناه (أنشىء عام ١٩٢٠) ، كما ألفوا ارجون زفاى ليومى الأكثر تطرفا وأشد ميلا للعدوان (أنشىء عـــام ١٩٣٥) .. وفى الفترة التى أعقبت ذلك على الفور ، كان على المستعمرين أن يقوموا فى يوم واحد بتحصين مستعمراتهم وتوفير آبار المياه اللازمة ، واستحضار عدد من الكشافات الضوئيـــة ، وتوفير المتاريس وأكيـــاس الرمل والأسلاك الشائكة ، لأنه كان متوقعا أن يقوم العرب بهجوم شامل عند حلول الليل .. وفى عام ١٩٣٦ قام رجال المقـــاومة العرب باحراق مئات من المستعمرات اليهودية ومئات الالوف من اشجار الفاكهة .. وأدى الاضراب العام الذى تم فى الفترة من أبريل الى اكتوبر عام ١٩٣٦ ، الى زيادة الموقف المضطرب سوءا .

وأرسلت لندن مزيدا من الجنود كما نشرت تقريرا وضـــعته

اللجنة الملكية برئاسة لورد بيل ، وزير الدولة السابق لشئون الهند (٧ يوليو ١٩٣٧) ، وقد رأت اللجنة أن الحل الوحيد هو اجراء ما أسمته « بعملية جراحية » ولهذا فقد اقترحت التقسيم ، بحيث تقوم دولة يهودية حرة فى المنطقة الساحلية الممتدة بين حيفا ويافا ، ومنطقة صغيرة تحت الانتداب البريطانى تقع بين يافا والقدس ، وكل الأراضى الباقية تنضم الى شرق الاردن ، باعتبارها أراضى عربية ..

وفى المؤتمر العربى الذى عقد فى بلودان ، بسوريا ، (٨ سبتمبر ١٩٣٧) وحضره ٤٠٠ من ممثلى كل الدول العربية ، رفض العرب المشروع من حيث المبدأ .. واتسع نطاق الثورة العربية ، وكان هذا مما لا يستطيع البريطانيون احتماله .. وفى أول اكتوبر اعتقل البريطانيون اعضاء اللجنة العربية العليا ونفوا معظم زعمائهم الى سيشل ، فى المحيط الهندى ، الا أن الزعيم الحقيقى للحركة العربية ، الحاج أمين الحسينى ، مفتى القدس الأكبر ، فر الى سوريا ، ومن هناك واصل قيادة الثورة ..

وفى عام ١٩٣٩ أصبحت سوريا نفسها غير محتملة بالنسبة لوجوده فيها فاتجه الى العراق ثم الى ايران ، وفى عام ١٩٤١ ظهر فجأة فى برلين حيث ظل خلال الحرب يوجه حملة دعاية اذاعية ضد البريطانيين .. وعندما استسلمت المانيا توجه الى فرنسا بعد رحلة تخللتها المغامرات ، وفر من فرنسا بعد أن صدر الأمر بتحديد اقامته واتجه الى مصر .. الا أن أيامه كانت قد ولت ، ذلك لأن ميوله الفاشية لم تكن مستحبة فى تلك الأيام ، كما أن المحاولة التى قام بها (١٩٤٨) لانشاء دولة خاصة به فى قطاع غزة منيت

بالفشل وقام جيش اسرائيل وجيش شرق الاردن بتقسيم فلسطين ..

الا ان الحرب الأهلية كانت قد تحولت قبل ذلك الوقت . في عام ١٩٣٨ الى حملة منظمة .. واصبح لبريطانيا حينذاك جيش يضم ٢ الف رجل من المنطقة ، الا انه لم يكن يستطيع في الواقع أن يحدث اى تغيير مادى في الموقف .. وبذلت بريطانيا محاولة أخيرة لايجاد تسوية ، فعرضت المشروعات المختلفة امام مؤتمر عقد في لندن (فبراير ـ مارس ١٩٣٩ ، ودعى لحضور المؤتمر ممثلون ليس فقط عن طرفي النزاع ، وانما ايضا ممثلون عن مصر والمملكة العربية السعودية والعراق وشرق الاردن واليمن .. ولم يحقق المؤتمر أية تسوية من الناحية الرسمية الا ان لندن اعتبرت البيانات التى ادلى بها العرب تهديدا كافيا ، ولم يكن هناك اى مجال لمزيد من التردد .. وفي ١٧ مايو نشرت بريطانيا مشروعها الخاص ، وهو يقضي بأن تصبح فلسطين عام ١٩٤٩ دوله مستقلة مثل العراق وشرق الاردن ، وألا تزيد الهجرة اليهودية الى فلسطين خلال الفترة من ١٩٣٩ الى ١٩٤٤ عن ٧٥ الف يهودى . بالاضافة الى ذلك سيكون للاغلبية العربية رأى حاسم فى الهجرة . ومعنى ذلك أن الهجرة سوف تتوقف .. وقد أصبح بيع الأراضى العربية ممنوعا بصورة فعلية فى فلسطين كلها ..

ولم يوافق البرلمان البريطاني تماما على ما كان يبدو بوضوح مشروعا مواليا للعرب ، وقد امتنع عن التصويت على المشروع مائة نائب من حزب الحكومة واقترع ضده ٢٢ عضوا ، من بينهم : ونستون تشرشل الذى استنكر المشروع واعتبره بمثابة (ميونيخ

اخرى ؟ .. ومن المعروف انه بمقتضى تسوية ميونيخ (٢٩ سبتمبر ١٩٣٨) رضخت الحكومتان البريطانية والفرنسية لمطالب المانيا في أوربا الشرقية ... الا ان الانتقادات لم تكن محصورة داخل بريطانيا .. وتجددت حرب العصابات في فلسطين وأصبحت أشد ضراوة مما كانت عليه من قبل .. وكان هذا هو الوضع عنـــدما نشبت الحرب العالمية الثانية فأدت الى تخفيف التوتر مؤقتا .

٥

مصر

فى عام ١٨٨٢ احتلت بريطانيا مصر ، التى كانت تعد من الناحية النظرية أحد اقاليم الحدود فى الامبراطورية التركية . وفى شتاء عام ١٩١٤ اصبحت مصر تحت الحماية البريطانية . واثناء الحرب العالمية الأولى تحولت الى حصن ضد الترك رغما عن ارادة المصريين . وعملت الحركة الوطنية على الاستفـادة من الظروف القائمة حيث كانت بريطانيا مكتوفة اليـــدين بسبب الحرب وفى الفترة الصعبة بين عامى ١٩١٨ و١٩٢١ كان يبدو أن بريطانيا ربما تسلم بمطالب الحركة الوطنية ، وفى ١١ نوفمبر عام ١٩١٨ استسلمت المانيا وتوقف القتال فى الجبهة الغربية . وفى صبيحة يوم ١٢ نوفمبر توجه سعد زغلول باشا وغيره من الزعماء الوطنيين الى مقر سير ريجينالد وينجيت ، المنـــدوب السامى البريطانى . وعندما سألوه عن الموعد الذى ستبـــدأ فيه المحادثات الخاصة بالدستور ، رفض وينجيت أن يجيب على السؤال وابلغهم ان هذا السؤال لا يقدم اليه الا من قبل الوزراء . وعندما علم المواطنون بذلك ثارت مشاعرهم ، وطالبـوا بضرورة دخول سعد زغلول الوزارة . وعندما تلقى البريطانيون تهديدا بأن وفدا مصريا سيتوجه سرا لحضور مؤتمر فرســــاى ، قامت بريطانيا (٨ مارس ١٩١٩) باعتقال سعد زغلول وثلاثة من زملائه ونفتهم الى جزيرة مالطة . وترتب على ذلك حدوث ثورة تخللتها

الاضرابات والمعارك فى الشوارع • وكما هو الحال فى كل مكان فى الشرق ، وكما حدث من قبل فى اوروبا ، كان الطلبة وعدد كبير من المثقفين وهم طليعة الثوار ، وحتى المحامين أعلنوا الاضراب وكان الوفد قد زاد من قوته خلال الحرب الى حد كبير كنتيجة للاجراءات التى اتبعتها الدولة المحتلة حيث كانت تطلب من المواطنين مطالب غير عادلة فمثلا كانت تامر المصريين بالعمل مسخره فى الجبهة وخلف الجبهة .

وارسلت بريطانيا الفيلد مارشال اللنبى ، الذى تولى قيادة القوات البريطانيه والعربيه فى الجبهه التركية الجنوبية . لكى يعمل على تصفية الموقف • وحاول اللنبى اجراء مفاوضات • وتمت اعادة سعد زغلول وزملائه الى مصر • وسرى شعور بالارتياح لدى الراى العام وتوقفت الثورة • الا أن هذا الوضع لم يستمر طويلا وفى نهاية ابريل اصدر اللنبى مرسوما صارما ذا طابع استعمارى حقيقى . وتحطمت المقاومة المصرية .

وقد عين اللنبى مندوبا ساميا بدلا من وينجيت (اكتوبر ١٩١٩) وفى الوقت نفسه وصلت لجنة ملنر الى مصر للوقوف على حقيقة الموقف السياسى وتقديم تقرير الى لندن • وفى اول مارس عام ١٩٢٠ عاد ملنر الى لندن ، وجاء رد الفعل من جانب المصريين خلال اسبوع • وفى اجتماع عقد فى منزل سعد زغلول اعلن ٥٢ من أعضاء البرلمان المصرى استقلال مصر • وكان ذلك بمثابة التحذير شديد لبريطانيا ولم يكن هذا التحذير عديم الفائدة • وجرت محادثات بين ملنر وسعد زغلول فى لندن طوال الصيف والخريف وفى أغسطس اعترفت بريطانيا ، مثلها فى ذلك مثل

مصر ، بسعد زغلول باعتباره الزعيم الحقيقى لمصر بدلا من السلطان أحمد فؤاد الذى خلف شقيقه حسين كامل عام ١٩١٧ ، وفى فبراير نشر تقرير ملنر • وتقرر ان تصبح مصر مستقلة اذا ماتم تامين المصالح البريطانية الرئيسية ، ورفض الوفد المشروع ، وأكد سعد زغلول هذا الرفض عند عودته الى القاهرة فى شهر ابريل واستانف ثورته ضد بريطانيا وضد حكومة السلطان الضعيفة وعندما اعتقل سعد زغلول من جديد سرت فى البلاد موجة عنيفة من العداء ضد الأجانب وقتل عدد كبير من البريطانيين واليونانيين • وعندما أفرج عن سعد زغلول فى شهر يونيو ، كان هناك احتمال لتجدد المفاوضات فى لندن • وتردد هذا السؤال: من سيكون المتحدث باسم مصر ؟ أهو عدلى باشا ، رئيس الوزارة المعتدل أم سعد زغلول الثائر ؟ وتم اختيار الرجل الرسمى ، وهو عدلى الذى أرسل الى لندن • وهناك وجد نفسه أمام وجوه متجهمة مطبوعة على الاستعمار ، وفى نفس الوقت شعر بأن وراءه نفوذا يتهدده هو: نفوذ سعد زغلول والوفد • وتوقفت المفاوضات فى نوفمبر .، وبدا ان المطلبين البريطانيين ـ وهما استمرار الاحتلال العسكرى ومنع مصر من ممارسة سياسة خارجية مستقلة ـ مبالغ فيهما حتى من وجهة نظر عدلى نفسه ،. أولم يكن هذان المطلبان يعنيان تجدد الحماية ؟ وحاول السلطان والبريطانيون تقييد حركة الوفد ، الذى يثير المضايقات ، بفرض الرقابة وشن حملة ارهابية ضده ، الا ان أسس فكرة الحرية كانت قد تدعمت وقد اثار اعتقال سعد زغلول للمرة الثالثة ونفيه الى سيشل (٢٢ ديسمبر عام ١٩٢١) عاصفة من الاحتجاج وبدأ المصريون حركة مقاومة سلبية على الطريقة الهندية ـ

الباكستانية . وفى مواجهة هذه المقاومة كانت بنادق الجيش البريطانى ومدفعية السفن الحربية البريطانية تقف عاجزة

وفى ٢٨ فبراير عام ١٩٢٢ وبعد مضى عام على نشر تقرير ملنر ، أعلنت بريطانيا الغاء الحماية . واصبحت مصر مملكة مستقلة ، واصبح السلطان يلقب بالملك فؤاد الأول (١٩٢٢ – ١٩٣٦) والشىء الوحيد الذى كان يحد من سيادة مصر هو قيام بريطانيا بضمان تامين طرق المواصلات وبمعنى آخر احتلت بريطانيا منطقة قناة السويس واصبحت بريطانيا مسئولة عن الدفاع عن مصر وحماية الأجانب ، كما احتفظت بريطانيا بالسودان ،وهو يمثل وادى النيل الواقع الى الجنوب من خط عرض ٢٢ ، والذى عرف فى التاريخ باسم السودان المصرى – الانجليزى نظرا لقيام البلدين بحكم السودان حكما مشتركا فى الفترة من عام ١٨٩٩ الى عام ١٩٥٥ وبمعنى آخر اصبحت لبريطانيا السيطرة على النيل الا أن مصر كانت حرة !

ومع تغير الأوضاع لم تعد بريطانيا تستطيع الابقاء على سعد زغلول فى منفاه ، وفى ابريل عام ١٩٢٣ عاد الى مصر ، وفى نفس الوقت أصبح لمصر دستور (١٩ ابريل ١٩٢٣) رغم أنه لم يكن دستورا ديمقراطيا عصريا بالمعنى المفهوم . وكان الملك يتولى تعيين خمسى عدد اعضاء مجلس الشيوخ فى البرلمان ولم يمنح حق الانتخاب للنساء أو الجنود ، وكنتيجة لنظام الانتخاب غير المباشر الذى وضع بعناية ووجه بصفة خاصة ضد المناطق الزراعية ، لم يكن للفلاحين أو العمال الزراعيين رأى كبير فى أمور البلاد وكان ذلك بمثابة مسخ للديمقراطية الحقيقية وخاصة فى بلد يعمل

ثلاثة أرباعه فى زراعة الارض • وكانت الأغلبية الكبيرة التى نالها الوفد فى الانتخابات فى سبتمبر ، بمثابة تفوق أغلبية تمثل البورجوازيين الوطنيين على الملك وكبار ملاك الاراضى والبريطانيين•

وأصبحت هناك معارضة من شقين :

الشق الأول يتمثل فى معارضة الوفد باعتباره حزبا دستوريا ديمقراطيا ، ضد الملك والرجعيين ،

والشق الثانى يتمثل فى معارضة الوفد ، كحزب وطنى ضد البريطانيين • وفيما يلى ذلك من أحداث كانت تلك العناصر الثلاثة هى المسئولة عن كل انذار وجه الى الوفد وكل استخدام للقوة ضد الوفد وكان رجال السياسة فى لندن هم وحدهم الذين أبقوا على الملك فؤاد وعلى بلاطه الذى تحيط به الشكوك •

وعندما تولى سعد زغلول رئاسة الوزارة فى يناير عام ١٩٢٤ خفت حدة الاضطرابات ، وكان تعيين سعد زغلول رئيسا للوزارة وما ترتب على ذلك من عواقب هو بفعل الأعمال الارهابية التى قام بها الجانبان ففى لندن قتل الامير على كامل وهو من انصار الوفد المعروفين وفى مصر قتل السردار سير لى ستاك ، وكان قائدا عاما للجيش المصرى وحاكما عاما للسودان • وكانت كل هذه الأعمال فى مصلحة الأوروبيين الذين دأبوا على وصم الحركات الوطنية الآسيوية والأفريقية بانها حركات ارهابية بدلا من ان يروا فيها تعبيرا عن التطور الطبيعى للطبقات والشعوب المغلوبة على أمرها •

والاجراء الذى قامت به بريطانيا انتقاما لمصرع السردار اجراء مشهور ففى نهاية نوفمبر وجهت لندن انذارا ينطوى على التهديد

طلبت فيه فرض حظر على المظاهرات السياسية وطلبت ايضا الموافقة على مشروع الري الكبير عند النيل الازرق فى السودان وكنتيجة لهذا المشروع تحصل مزارع القطن البريطانية على مزيد من المياه بينما تحصل المزارع المصرية على مياه أقل ، فهذا هو ماكان متوقعا على الاقل. وبالاضافة الى ذلك فقد كان على جميع الضباط المصريين وجميع الجنود من ذوى الدم المصرى النقى ان ينسحبوا من السودان ورفض سعد ذلك كله واستقال من الحكومة . وسلم زيور باشا رئيس الوزارة الجديد بمطالب بريطانيا ؛ وبينما كانت القوات المصرية تنسحب من السودان كان المهندسون البريطانيون ينشئون السد العظيم عند ماكوار (سنار) .

وفى الانتخابات الثانية التى اجريت فى مارس عام ١٩٢٥ فاز حزب الوفد من جديد بأغلبية ضخمة ، مما أزعج الملك فؤاد والبريطانيين فأمر الملك باجراء انتخابات جديدة ، وهى مناورة لم تأت بفائدة فقد خرج الوفد من الانتخابات المعادة قويا وقد حصل على ١٥٤ مقعدا بينما بلغ مجموع ماحصلت عليه كل الاحزاب الأخرى ٤٠ مقعدا ولم يستطع الملك أن يفعل أكثر من ذلك الا ان بريطانيا ارسلت الى مصر سير جورج لويد (١٩٢٥–١٩٢٩) الذى منح فيما بعد لقب لورد ، وهو شخصية استعمارية أصيلة

وكان يوم ٢٣ اغسطس عام ١٩٢٧ يوما أسود فى تاريخ مصر فقد توفى سعد زغلول فى ذلك اليوم ، وهو بالتاكيد من أعظم ساسة مصر الحديثة ، وخلفه كزعيم للوفد مصطفى النحاس باشا (ولد عام ١٨٧٦) الذى تولى رئاسة الوزارة عام ١٩٢٨ ولم يكن ممكنا وقف تقدم الحركة الاستقلالية وقد حاول الملك جاهدا ، وبمساعدة البريطانيين ان يمنع هذه الحركة من ان تشق طريقها

فى حرية ولم يبذل الملك اى جهد فى دعم الواجهة الديمقراطية .
وعن طريق « انقلاب » وضعت خطته فى لندن قام الملك بحل
البرلمان وفرض الرقابه على الصحف وحظر الاجتماعات • وكان
فؤاد والبريطانيون يحكمون مصر فى الفترة من ١٩٢٨ الى ١٩٢٥
بحكما أوتوقراطيا استبداديا .

ولم يبدأ الموقف فى التغير قبل عام ١٩٢٩ • وقد دعى حزب
العمال البريطانى لتشكيل الوزارة مرة اخرى برئاسة مكدونالد
(يونيو ١٩٢٩ الى أغسطس ١٩٣١) وكما فعل البريطانيون بالنسبة
لروسيا السوفيتية والهند ـ وباكستان فقد قاموا ايضا بتغيير
سياستهم قليلا تجاه مصر • ورحل المندوب السامى الدكتاتور
لويد واعيدت الحقوق الدستوريه الى البلاد . وفى الانتخابات
حصل الوفد على أغلبية ٩٠ فى المائه من مجموع الأصوات • وفى
يناير عام ١٩٣٠ أصبح النحاس باشا رئيسا للوزارة من جديد
وفى نفس الوقت استؤنفت المفاوضات واظهرت لندن روح تفاهم
يمكن معها التوصل الى نتائج ، وفيما يتعلق بمياه النيل تم الاتفاق
على ان يستخدم السودان مياه النيل الأزرق فقط بينما تنال مصر
مياه النيل الابيض • وفيما يتعلق بالناحية العسكرية تقرر . بدلا
من الاحتلال البريطانى ، انشاء تحالف عسكرى مماثل للتحالف
الذى يقوم بين الدول ذات السيادة ، والا ترابط القوات البريطانية
الا فى منطقة قناة السويس • وبالاضافة الى ذلك تصبح مصر
عضوا فى عصبة الامم ، ويوضع السودان من جديد تحت الادارة
البريطانية والمصرية المشتركة •

وبدا ان الامور تسير فى الطريق الصحيح . الا انه عند اجراء
المفاوضات من جديد بشأن السودان اضطرب الميزان مرة اخرى •

وفي اوائل صيف ١٩٣٠ كان واضحا ان النحاس لم يعد هو سيد الموقف ، وتولى صـــدقي باشا ، وهو ملكي موال لبريطانيا رئاسة الوزارة واصبح فؤاد دكتورا من جديد ، وازداد موقفه قوة بسبب الأزمة الاقتصادية ، التي احدثت بصفة خاصة آثارا سيئة على هذا البلد المنتج للقطن .

وعندما عاد الوفد الى اتباع اسلوب المقاومة السلبية من جديد، عمل الرجعيون على تحطيم نفوذه بانشاء حزب جديد بزعامة صدقي هو (حزب الشعب) وحصل الحزب على اغلبية مزورة في انتخابات مايو عام ١٩٣١ كنتيجة لسياسة تكميم الوفد وتزوير الوثائق والارهاب وتشجيع التيارات الرجعية .

ولم يطرأ اي تغير على الموقف قبل عام ١٩٣٥ فقد سرى قليل من النور وسط الظلام ، رغم أن هذا النور قد يكون ناشئـا عن الاحداث التي وقعت في الخارج ، ففي ٣ اكتوبر قامت قوات ايطاليا الفاشسية بغزو اثيوبيا الواقعة على حدود السودان . وشعــرت بريطانيا بان امبراطوريتها مهددة ، ورغبت في الحصول على تأييد مصر لها والضرب على وتر جديد . وفي ديسمبر أعيد العمل بدستور عام ١٩٢٣ وقضت مشيئة الله أن يموت فؤاد «٢٨ ابريل ١٩٣٦» وخلفه فاروق (ولد عام ١٩٢٠ ونفى عام ١٩٥٢) الذى كان في في بداية الأمر اكثر شعبية من سلفه وبدا اقل منه خطورة بكثير .

ونتيجة للانتخابات التي جرت في مايو عاد النحاس الى الحكم وفي ٢٦ اغسطس عام ١٩٣٦ وقع النحاس المعاهدة الانجليزية البريطانية المشهورة ، والتي تعتبر رغم الجدال الذى أثير حولها فيما بعد علامة حقيقية على طريق الاستقلال . فقد نصت المعاهدة

على انسحاب قوات الاحتلال البريطانية ، فيما عدا منطقة القناة التى احتفظت فيها بريطانيا بعشرة الاف جندى وبسلسلة من القواعد الجوية وتصبح نصوص المعاهدة باطلة فى حالة الحرب وفى أوقات الأزمات الدولية ، واحتفظت بريطانيا بقواعد بحرية فى الاسكندرية وبور سعيد ولكن لمدة اقصاها ثمانى سنوات وأصبح للمصريين الحرية فى الهجرة الى السودان وعادت القوات المصرية الى السودان وألغيت الامتيازات ، وبمعنى آخر لم يعد للاجانب بما فيهم البريطانيون أنفسهم اية حقوق خاصة ،وتقرر ان تدخل مصر « باعتبارها دولة ذات سيادة » عصبة الأمم • وتصبح المعاهدة سارية المفعول لمدة ٢٠ عاما

وحصل الوفد على كل ما كان ممكنا تحقيقه فى ذلك الوقت وعندئذ وقع ما يحدث عادة لحركات المقاومة عندما يصبح الحلم شبه حقيقية وتطرا مشكلات غريبة وجديدة . ووجد الوفد نفسه يعمل فى فراغ واتضح حينذاك الى اى مدى كان الحزب من صنع ظروف استثنائية ، هى مجموعة من المتناقضات فى الحرب ضد الغزو الاجنبى وقد خرج من الوفد ملاك الاراضى وعناصر الشق الرجعى من البورجوازية وتحولوا الى اليمين مشكلين احزابا مثل الحزب السعدى . وبقى الوفد على حاله ليس فيه ما يغرى العمال فى المدن أو الجموع الضخمة من الفلاحين بالانضمام اليه وفى الانتخابات التى جرت عام ١٩٣٨ نحى الحزب عن المسرح السياسى مؤقتا .

وكانت مصر ، التى اصبحت حرة حينئذ ، منقسمة على نفسها فى الداخل ، واخذت تتجه بصورة متزايدة نحو الدول العربية على

حدودها الشرقية • وفي عام ١٩٣٩ ، كان لها دور في الحرب ولكنه دور غير نشط لانها ظلت محايدة ، رغم قيامها بقطع العلاقات مع المانيا وايطاليا واليابان في سبتمبر ١٩٣٩ ويونيـــو ١٩٤٠ وديسمبر ١٩٤١، وهى نفس التواريخ التى اعلنت فيها بريطانيـا الحرب على تلك الدول ، ورحبت مصر ، رغم ان ذلـــك لم يكن بارادتها ، بقوات الحلفاء تحت قيادة ويفيل والكسندر • وسوف نتناول فيما بعد الأحداث التى وقعت خلال الحرب

٦

ايران وافغانستان

فى عام ١٩١٩ كانت الدول الغربية قد اتمت وضع خططها ؛ وكان على لندن وباريس ان تتخذا القرارات وليس المصريون أو العرب أو الترك أو الايرانيون أو الأفغانيون هم الذين يتخذون تلك القرارات • لقد كان يجب على الدولتين أن توجها الدعوة الى الشرق الأوسط لارسال ممثلين عنه لحضور مؤتمر فرساى ، على الأقل ولكن بدلا من ذلك قامت بريطانيا باعتقال سعد زغلول ، وابقت فرنسا على فيصل فى منفاه خارج سوريا والايرانيون الذين حضروا الى باريس لم يكن معترفا بهم • لقد كانت بريطانيا هى التى تملى ما يجب أن يحدث فى ايران . وقد اجبرت الحكومة البريطانية على توقيع معاهدة ـ وضعها سير بيرس كوكس الذى لمسنا تصرفاته فى العراق ـ وقد آكدت المعاهدة ، بطبيعة الحال ، سيادة ايران ووحدة أراضيها الا ان ايران كانت تعامل - الواقع كمستعمرة متخفية فى زى تنكرى ، وقد أجريت عملية التخفى هذه بعناية ؛ طبعا (٩ اغسطس عام ١٩١٩) وكان رد الفعل من جانب ايران نموذجا للتغيرات التى بدأت تظهر على مسرح الأحداث • ورفض البرلمان الايرانى (المجلس) أن يصدق على المعاهدة والسبب الرئيسى لهذا الرفض هو ما علمه البرلمان عن الاموال التى اعطاها البريطانيون للحكومة كدليل بسيط على تقديرهم لهذه الحكومة ان هذه الصفقات لاتنجح الا اذا احيطت بنطاق من السرية • وان كانت ايران

قد اقتفت أثر بريطانيا وأصبحت عضوا فى عصبة الامم (يناير ١٩٢٠) فقد كانت تعانى فى الداخل من الفوضى المتزايدة حيث كان عدد جديد ينبثق من الماضى الآخذ فى التلاشى .

وفى صيف عام ١٩٢٠ كان البلاشفة المهددون من كل مكان ؟ يتوجسون خيفة من العمل الذى قامت به بريطانيا ضد باكو وضد مناطق البترول فيها • فاحتلوا شريطا من الساحل الايرانى المطل على بحر قزوين . ولكن لواء القوزاق بقيادة الكونيل ستورسلسكى انسحب من جديد الى الداخل كما انسحبت الى الداخل أيضا قوات الاحتلال البريطانية • وكان هذا اشارة البدء فى التحول الجديد كما كان الحال بالنسبة لروسيا عام ١٩١٧ وبالنسبةلتركيا عام ١٩١٩ • وكانت الاتجاهات لمتحررة داخل البورجوازية الايرانية ، ويمثلها الأحرار ، المعادون لحكم الشاه الفاسد وغير الوطنى وللنبلاء أصحاب الاراضى ، تداعبها منذ وقت بعيد فكرة القيام بثورة تستهدف احداث تغييرات نهائية ، كتلك التى تطلعت الى تحقيقها العناصر اليسارية التى قامت بثورتى ١٩٠٦ و١٩٠٩ • وقد توجه زعيم الحركة ، وهو سعيد ضياء الدين المصلح والكاتب الكبير ، بطلب المساعدة الى رضا خان ، الضابط الايرانى فى لواء القوازق « ١٨٧٨ ــ ١٩٤٤) وهو وطنى ذو فطنة ، وقد ولد فى اقليم ماساندارات الواقع بين جبال القوقاز الثلجية وبحر قزوين . وقد قام أولا بتطهير اللواء من ضباطه الموالين للقيصرية ، وعندئذ أعلن استعداده للقيام بانقلاب • وفى ليلة ٢٢ــ ٢٣ من فبراير دخل طهران على راس قوة تضم ٣٠٠ من رجال القوازق ، وعندما طلع الصباح كانت فى ايران حكومة وطنية. ان هذا النمط من ثورات الضباط ، ذوى الاهداف المعتدلة ، هو ظاهرة تتكرر فى

تاريخ اليقظة الآسيوية • وتعد تلك الثورات فى نظر الغربيين، أمرا غريبا بل محيرا ، ذلك لان العسكرى المحترف فى أوروبا يميل الى دعم النظم القديمة أكثر من ميله الى القيام بثورة . الا أن التاريخ لا يكذب . ففى ايران سارت الامور فى الاتجاه نفسه الذى سلكته فى الدول المجاورة فكما حدث فى روسيا تم الانقلاب فى طهران فى ليلة واحدة • كما أن الانقلاب لم يكن يمثل مجموع الشعب الا بقدر يسير كما هو الحال بالنسبة للثورة المصرية ، وكان أربعة أخماس مجموع الشعب فى هذه البلدان من الفلاحين والعمال الزراعيين •

ولقد كان رجال الحرس هم أكبر عون لبطرس الأكبر فى محاولته اسباغ الصبغة الغربية على روسيا ، ولكن بعد مضى قرن كان الضباط هم الذين أوحوا بقيام الثورة الفاشلة عام ١٨٢٥ ، وكان هؤلاء الضباط قد عملوا فى جيش الاحتلال فى فرنسا عام ١٨١٤ وقد أستهوتهم الأفكار السياسية الغربية •

فكان من الطبيعى أن نجد القياصرة والسلاطين والشاهات يحاولون فرض قيود على عملية صبغ القوات المسلحة بالصبغة الغربية ، ومنع (الأفكار الخطيرة) من التسرب الى الجيش الا أن الضباط الأذكياء ، الذين ينتمون عادة الى الطبقة البورجوازية ، على الرغم من العقبات التى بثت فى طريقهم ، والذين درسوا الكتب العسكرية الانجليزية والفرنسية والألمانية ، لم يهملوا دراسة الكتب الثورية الأخرى • وتعلموا أيضا بانفسهم القانون الثابت للتاريخ الذى يقول أن أية دولة لاتستطيع ان تكون لنفسها جيشا حديثا بالمعنى الصحيح اذا ظلت تعيش فى القرون الوسطى من

حيث النظم الاخرى التى تتبعها . فمن المستحيل اقتباس جانب واحد بارز فقط من الحضارة الاجنبية وتطبيقه .

وكما هو الحال فى الثورات الأخرى ، كان للضباط الايرانيين جانب مفيد بالنسبة لتطور الكفاح الوطنى وجانب آخر يشكل خطرا على هذا الكفاح . وقد تخلص رضاخان من ضياء الدين عام ١٩٢٣ ومن ذلك الوقت حكم البلاد وحده كدكتاتور صريح . الا أنه لم يكن خائنا للثورة ، رغم أن حكمه أظهر عام ١٩٤٠ ميلا نحو الجناح اليمينى وفى ٢٠ فبراير ١٩٢١ أعلن الغاء المعاهدة الانجليزية الايرانية وتوصل الى اتفاق مع البلاشفة . وكانو يجتازون حينذاك مرحلة بطولية دقيقة من ثورتهم وقد أظهروا كرما نحو الايرانيين بدافع المبدأ من ناحية ،ولأنهم كانوا يخشون مزيدا من التدخل من جانب الغرب من ناحية أخرى . فقام البلاشفة بالجلاء عن الأراضى الايرانية وأعلنوا الغاء جميع الامتيازات الأجنبية (التى كانوا يتمتعون بها فى ايران) وكل الديون ، وكل امتيازات التعدين وكل المطالب الروسية الاخرى فى ايران ، مهما كان التاريخ الذى ترجع اليه . والمعنى الحقيقى للاتفاق يكمن فى النص الذى يتناول حقوق روسيا بالنسبة لايران ، وهو يقرر أنه اذا قامت اية دولة أجنبية (كبريطانيا مثلا) باحتلال جزء من الأراضى الايرانية فان الروس ستكون لهم الحرية عندئذ فى اقتحام أراضى ايران .

وهكذا تم تامين الجبهة الشمالية . وكانت القوات البريطانية قد عادت كلها الى العراق أو الهند ، ولم يكن هناك أى تهديد من جانب تركيا حيث كانت حكومة انقرة تحاول التخلص من الغزاة الأوروبيين . بل لقد أدى الاتفاق الذى وقع بين تركيا وايران (ديسمبر ١٩٢١) الى تحويل العداء القديم بين البلدين الى وضع

أفضل

حيادى ، رغم أنه لم يكن حيادا يسوده الود الكبير ، ونظر رضا خان الى مصطفى كمال باعتباره رفيق النضال على طريق الثورة ، بل وأكثر من ذلك اعتبره نموذجا يحتذى ، كما سنرى فيما بعد .

ان الوطنيين الايرانيين لم يحققوا خلال الفترة ما بين الحربين العالميتين ما استطاع مصطفى كمال أن يحققه فى حملته الفردية الى حد كبير من اجل ادخال النظم الحديثة الى البلاد طبقا للنموذج الروسى . لم يكن رضا خان يستطيع ان يفرض حظرا على دخول كل رؤوس الاموال الاجنبية او على الاقل كل رؤوس الاموال البريطانية . فرؤوس الاموال الاجنبية البريطانية تسيطر سيطرة قوية على الانتاج البترولى ، الذى يدر الجانب الاكبر من الدخل القومى فى ايران وفى نفس تلك الفترة كانت محاصيل القطن وقناة السويس وحقول النفط فى كركوك من أسباب التدخل البريطانى فى مصر والعراق ، كما ان حقول النفط فى كرمنشاه وكوزستان كانت أسبابا لتدخل مماثل فى ايران . وهكذا ظلت بريطانيا تسيطر على البترول . وبعد مضى ثلاثين عاما قام مصدق بتغيير هذا الوضع ولكنه دفع ثمن جرأته فحكم عليه بالسجن ثلاث سنوات (٢١ ديسمبر ١٩٥٣) .

ونتساءل الى أى مدى حاول رضا خان ان يستبعد رؤوس الأموال المستغلة فى البترول رغم أن من الواضح أنه ناضل من اجل تقييد وشل النفوذ البريطانى ، بأن استحضر الى ايران خبراء التكنولوجيا والاقتصاد من المانيا وروسيا واسكنديناوه والولايات المتحدة وأصبح دكتور ا٠س٠ميلزيو ، وهو اقتصادى أمريكى ومبعوث من شركة كاليفورنيا للبترول ، مديرا للشئون المالية الايرانية ، التى كانت تسودها الفوضى بطبيعة الحال ، وكذلك

مديراً لوزارة الحربية (١٩٢٢ ١٩٢٧) وقام الجيش الايرانى بعد اعادة بنائه ، وبعد أن أصبحت له قوة كبيرة ، باحتلال واسترداد الأقاليم الايرانية فى الشمال الغربى والجنوب الغربى وتم احتلال أذربيجان عام ١٩٢٢ . وبعد ذلك عاد رضا خان الى طهران وكما ذكرنا ، تخلص من ضياء الدين ، الذى اعتبره ديمقراطيا أكثر من اللازم ، وتولى رئاسة الوزارة بنفسه (٢٨ اكتوبر ١٩٢٣) وكان هذا بمثابة اشارة الى الشاه لكى يغادر البلاد . وقد اختفى فى أوروبا ولم يعد بعد ذلك .

ولم يكن فراره من البلاد بمثابة نفى رسمى له ، وعندما انتشرت فى صيف عام ١٩٢٤ شائعات عن عودته عمت البلاد موجة من الهياج تغذيها انزعة الجمهورية . واخذ (المللات) « رجال الدين » من الشيعيين الذين كانوا يشكون فى كل شىء يبدو ثوريا على الطراز التركى أو الروسى ، يحثون رضا خان على التزام الاعتدال فى حملته لادخال النظم الحديثة الى البلاد ومنع انتشار الافكار الجمهورية والمعادية للدين ، وخضعت الحكومات لمطالب (المللات) ، مؤقتا على الاقل ، وفى نفس الوقت كانت الحكومة البريطانيةوشركة البترول الانجليزية الايرانية تحرضان البختياريين فى منطقة البترول الجنوبية الغربية على الثورة ضد طهران . ويعد ذلك مثلا آخر على التحالف المضاد للوطنية بين النظام الاقطاعى المهدد والاستعمار الاجنبى ، وهناك أمثلة أخرى على ذلك فى الحروب الاهلية التى دارت فى روسيا والصين وكوريا ومنغوليا والهند الصينية .

وفى ايران تمكن رضا من القضاء على ثورة البختياريين فى اكتوبر ١٩٢٤ . ويبدو أن فرصته قد حانت حينذاك كما كان

الحال بالنسبة لمصطفى كمال بعد الثورة الكردية ، واعطى البرلمان الايرانى سندا شرعيا للدكتاتورية التى كان يبدوان الظروف تبررها (فبراير ١٩٢٩) وجردت الشاه فى أوروبا من كل صلاحياته (٣١ اكتوبر عام ١٩٢٥) وكانت تلك هى نهاية أسرة كاجار . وفى ٢٥ ابريل تولى ضابط القوزاق العرش باسم رضا خان بهلوى (١٩٢٥-١٩٤١) ، وحاول حينئذ اتباع سياسة مصطفى كمال وأدت اتفاقية الأمن المتبادل وعدم الاعتداء التى وقعتها تركيا وايران وافغانستان بايحاء من روسيا (١٩٢٦) الى التقليل من خطر التغلغل الغربى ، وعندما أصبح العراق عام ١٩٣٧ هو الدولة الرابعة الموقعة على الاتفاقية - وهى اتفاقية سعد أباد - أصبحت الاتفاقية تشمل دولا تضم حوالى ٥٠ مليون مسلم .

وكان الأساس التكنيكى لادخال النظم الحديثة فى ايران هو اتباع الأساليب الغربية فى المواصلات ومد الطرق ونظم السكك الحديدية ، ان بلدا تسير فيه الجمال والقوافل قد يكون له سحر خيالى ، الا أنه لايكون معدا لمواجهة الاحتياجات العصرية .واستدعى الشاه الثائر المهندسين ، واغلبهم من الالمان ، وقد شقت الطرق فى كل مكان بين القرى النائية والمدن وعبر الاراضى الصخرية الصحراوية والتلال - اربعة اخماس مساحة ايران أراضى صحراوية - وبين حقول الحبوب وحدائق الخضر ومزارع العنب والمشمش التى تزهر كما لو كانت واحات وسط الوديان الغربية ، وزهور أصفهان التى قد تعد باستثناء نساء ايران وبترولها ، من أجمل منتجات ايران واسرعهـــا زوالا فى نفس الوقت . ولاول مرة فى تاريخ ايران المضطرب اصبح فى الامكان حينذاك اجراء اتصال فعلى ومباشر بين الفلاحين والرعاة المتفرقين وبين الحكومة فى طهران . وعلينا

ان نذكر ان ايران تعادل فى مساحتها مساحة بريطانيا وفرنسا واسبانيا والمانيا مجتمعة ، وان اكثر من ثلاثة أرباع سكانها من الفلاحين والعمال الزراعيين ، من بينهم ٣ ملايين من رجال القبائل الرحل الذين يزودون البلدان الباردة بفراء الاغنـــام المشهورة وفى عام ١٩٣٩ كان بـ ايران طرق يبلغ طولها ٢٠ الف ميل تقريبا منها أربعة آلاف ميل طرق من الدرجة الاولى »

وفيما يتعلق بطرق المواصلات فان ايران تكاد تكون قد دخلت عصر السكك الحديدية وفى المنطقة الغربية من ايران توجد بعض الخطوط الحديدية الجيدة ، وقد اشتهر من هذه الخطوط الخط الذى يمتد عبر الأراضى الايرانية بين بندر شاه ، المطلة على بحر قزوين ، وبندر شابور : المطلة على الخليج العربى ، وقد اشتهر هذا الخط اثناء الحرب العالمية الثانية؛ نظرا لانه كان خط المواصلات الفعلى بين الجبهة الروسية بما تحتاجه هذه الجبهة من مـواد وبين المصانع الحربية الامريكيه ، وقد تم مد هـذا الخط فى الفترة بين عامى ١٩٢٨ و ١٩٣٧ ومر فوقة أول قطار فى شتاء عام ١٩٣٨ — ٣٩ وقد قام المهندسون الالمان والسويديون والدنمركيون بمد حوالى سبعمائة ميل من القضبان الحديدية وشق ٢٢٤ نفقا وانشاء ١٩٣٣ جسرا ، وقد تم ذلك كله بالاموال التى تحصلت عليهـا ايران من تجارة الشاى والسكر التى تحتكرها الدولة • وقامت المصانع التى يملكها النبلاء الالمان بانشاء خطوط جوية تصل الى طهران وأصفهان (١٩٢٧) وسارت الشركات البريطانية التى تقوم بتشغيل خط (اوروبا — شرق آسيا) على منوال الالمان وقام البنك الرسمى (بنك ملى ايران الذى أنشىء عام ١٩٢٨) بسحب الاعمـــال من البيوت المالية البريطانية مثل بنك ايران وبنك الشرق الاوسط .

وقد تمثل استقرار الحكم ونمو الوعي الذاتي عند الشعب في تغيير اسم الوطن من « فارس » الى (ايران) وفي تغيير السياسة المتبعة نحو لندن • فعلى سبيل المثال طالبت الحكومة الايرانية عام ١٩٢٧ باعادة جزر البحرين اليها وهي الجزر التي قام الشاه عباس الأكبر بطرد البرتغاليين منها عام ١٦٠٢ ، وظلت تلك الجزيرة تابعة لايران لمدة قرنين من الزمان • وقد حصل البريطانيــون على جزر البحرين من احدى أسر المشايخ في الكويت التي قامت بضم الجزر اليها عام ١٨٠٠ ، الا أن البريطانيين رفضوا التزحزح عن موقفهم، ووضعت مشروعات لانشاء أســـطول ايراني • وفي عـام ١٩٢٨ وصلت الى المياه الايرانية عدة سفن حربية تم صنعها في أحواض السفن الايطالية لتصبح نواة لاسطول ايراني ، الا أن الاسطول لم يخرج الى حيز الوجــود في ذلك الوقت • وفي عـام ١٩٥٥ كان الاسطول الايراني في مياه بحر قزوين يتألف من فرقتين وخمس سفن حربية واليخت الملكي وقاطرتين بحريتين • ان الزمن يتغير ، فلقد استردت ايــران اســتقلالها ، الا أن الايام التي كانت المدن اليونانية ترتعد فيها عنــدما تلمح الســفن الايرانيــة تقترب من شواطئها ، هذه الايام لن تعود مرة أخرى بسهولة •

ومن الامور التي عادت بفائدة أكبر تاميم الخطوط الداخليـــة لشركة (التلغراف الهندية ـ الاوروبية) ، وهي شركة بريطانيـــة (١٩٣١) وسيطرة الدولة على التجارة الخارجية (١٩٣١) وتعديل الاتفاق المبرم مع شركة البترول الانجليزية ـ الايرانية التي تملك حق استغلال البترول في مساحة تبلغ أربعة أخماس مساحة البلاد ونظرا لأن انتاج حقــول البترول الايرانيــة كان في تزايد مطرد ٥٠ الف طــن عام ١٩١٢ ، ٦٫٠٠٠٫٠٠٠ طن عام ١٩٣٠ ـ فقد

طالبت الحكومة عام ١٩٣٢ باعادة النظر فى عقـد (دارسى) المبرم عام ١٩٠١ ، وأسـفرت المسـاومات العنيفة بين ايران ، وشركة البترول الانجليزية الايرانية ، والحكومة البريطانية التى كانت لها مصالح مالية ، عن عقد اتفاق جديد حصلت ايران بمقتضاه على ٢٠٪ فى المائة من الايراد السنوى ، بينما كانت هـذه النسـبة ١٦ فى المائة ، كما حصلت على مبلغ خمسة شلنات اضـافية على كل طن ؛ كما خفض حجم الاتفاق بمقدار الخمس فيما يتعلق بمناطق الحدود الجنوبية الغربية الواقعة بين كرمنشاه وبندر عبـاس • ورغم ذلك فقد ظلت أرباح الشركة أضخم من مجموع العوائد التى تحصـل عليها ايران • وكان العقد يشمل الفترة من ١٩٣٣ الى ١٩٩٣ الا أن ايران نجحت فى الغاء هذا العقد عام ١٩٥١ دون حاجة لخـوض حرب •

وحاول الشاه أن يحقق فى الداخل ما حققته الثورة التركية من قبل • وكانت الاساليب التى اتبعها تجمع بين الاسلوب التحررى المتعصب الذى انتهجه مصطفى كمال والاسلوب الوحشى الصـارم الشبيه بأسلوب بطرس الأكبر • فقد حدث مثلا ، أثناء الحملة ضد حجاب المرأة ، أن قامت الملكة بزيارة مدينة « قم » المقدسة عـام ١٩٢٨ ، فواجهها هناك أحد (الملالات) فى استعلاء لانهـا لم تكن محجبة بما فيه الكفاية ، وفى اليوم التالى انطلق الشاه بنفسه الى المدينة فى عربة مدرعة واقتحم المسجد هناك بحذائه العسكرى ؛ كما أمر بالقاء القبض على عدد من اللصوص والقتلة الذين لجأوا الى مدينة (قم) وأشرف بنفسه على عملية ضرب (الملا) الذى اهـان الملكة •

ولم تكن المظاهر الخارجية المتخلفة عن الماضى ، هى وحدها التى يجرى الكفاح ضدها بقدر المستطاع ، باعتبارها تشكل عقبات فى طريق ادخال النظم الغربية فى ايران • ففى ميدان القانون أخذ العمل يجرى لزحزحة (الملات) تدريجيا لكى يصبحوا فى مؤخرة الصورة • وتم استبدال القوانين المستمدة من الشريعة الاسلامية بقوانين ونظم الادارة المأخوذة عن النماذج الفرنسية والسويسرية وتم العمل فى نشاط من أجل تحرير المرأة • وصدر قانون حديث للطلاق ، ومنع تعدد الزوجات ، وتغير سن الزواج للمرأة من تسع سنوات الى خمس عشرة سنة ، وقد حدثت كل تلك التغييرات فى الفترة من ١٩٣٠ الى ١٩٣٥

وقد ظلت نسبة الامية مرتفعة وتزيد عن ٧٥ فى المائة ، الا أن النساء والفلاحين لم يعودوا يتركون للجهل ، ففى القرى والمدن التى تضاءل فيها نفوذ (الملات) أخذت تظهر المدارس التابعة للدولة ، وفى عام ١٩٣٩ تم تعليم ثلث عدد الاطفال الايرانيين القراءة والكتابة بينما لم تكن هذه النسبة تزيد بالكاد عن نصف فى المائة عام ١٩٢١ ، وتم تأسيس جامعة طهران عام ١٩٣٥

وكما هو الحال فى تركيا ، كانت أغلب التغييرات البارزة من صنع دكتاتور موهوب •• وكانت مهمة البرلمان (المجلس) هى أن يزن الامور ويناقش ، بينما الشاه هو الذى يوجه الأمور ، وكما هو الوضع بالنسبة للثورة التركية عام ١٩١٩ ، فان الثورة الايرانية عام ١٩٢١ كانت من صنع الضباط مع عدد من السياسيين البورجوازيين الذين ثاروا ضد الأرستقراطية الفاسدة التى أرادت أن تحكم البلاد وحدها ، وظنت أن مطلبها هذا له ما يبرره لأنها تمتلك نصف مساحة مجموع الأراضى ، رغم انها لا تشكل سوى

واحد فى المائة من مجموع السكان • ومن هنا ، تعتبر الثورة الايرانية كغيرها من الحركات الوطنية ، ثورة طبقية • وقد يكون هذا أحد الاسباب التى جعلتها تتخذ طابع العنف والصرامة ، بل قد يبدو ذلك أيضا من أسباب ترددها وافتقارها الى القوة الدافعة فى مجال ادخال النظم المتحضرة فى المناطق الزراعية •

وهناك وجه شبه أساسى بين مصدر وأسباب كل من الثورتين التركية والايرانية ، أما فى ايران فان الثورة لم تتمخض الا عن نتائج أقل بكثير من النتائج التى حققتها الثورة التركية فى الناحية الثقافية وفيما يتعلق بالفلاحين والتغلغل الأجنبى والاستثمار • فما هو تفسير ذلك ؟ ان التفسير قد يكون كما يلى : لقد قامت الثورة الكمالية ، خلال حرب استقلالية مرت بثلاثة فصول شتوية واربعة فصول صيفية ، بايقاظ الفلاحين فى الأناضول من (سباتهم الشرقى) وعبأتهم ضد الغزاة الاوروبيين ، بينما كانت الثورة الايرانية نتيجة لانقلاب تم فى ليلة فى طهران • ولم تشمل الثورة الايرانية كل الشعب الا بقدر يسير ، مثلها فى ذلك مثل الثورة المصرية (١٩١٩) ، وفى هذه البلدان يشكل الفلاحون والعمال الزراعيون اربعة أخماس السكان •

والاعتبار الثانى يكمن فى أن تركيا لم يكن لديها ، بغض النظر عن المضايق ، شيء يعادل البترول فى خطورته ، فى حين أن ايران لديها فائض هائل من البترول ، ففى عام ١٩١٣ كان انتاج ايران من البترول ٠٠٠ر٠٠٠ر٨ طن وهو ما يعادل ثلاثة أرباع الانتاج الكلى لاندونيسيا من البترول فى ذلك الوقت ، وخمسة فى المائة من انتاج العالم من البترول • وقد تزايد انتاج ايران من البترول بصورة مضطردة ، ففى عام ١٩٤٥ بلغ الانتاج ١٤ مليون طن • وفى

عام ١٩٥٠ بلغ الانتاج ٣٢ مليون طن ، أى بمعدل ٠٠٠و٥٠٠ برميل (سعة البرميل الواحد أكثر من ٤٠ جالون) فى اليوم الواحد . وكان يتم تكرير كل الانتاج البترولى فى عبدان ، وهى احدى مراكز تكرير البترول فى العالم . وهذا يفسر لنا السبب فى موقف التصلب والتشبث الذى تلتزمه بريطانيا فى الدفاع عن مطالبها . ولقد أصبحت ايران منذ عام ١٩٢١ وحتى اليوم تحتل المرتبة الرابعة بين الدول المنتجه للبترول فى العالم ، فانتاج الولايات المتحدة من البترول بالنسبة لانتاج العالم اليوم هو ٥٠ فى المائة ، وفنزويلا ١٥ فى المائة وروسيا ٨ فى المائة وايران ٦ فى المائة . ونظرا لأن كلا من روسيا والولايات المتحدة تستهلك بنفسها كل انتاجها من البترول ، فان ايران تحتل عندئذ المرتبة الثانية بين الدول المصدرة للبترول .

أما كيف تمكنت ايران ، التى تعتبر مثار نزاع بين بريطانيا وروسيا ، وتعد بمثابة احتياطى البترول للاسطول البريطانى ، وتشكل اغراء أمام الاستعمار الامريكى والالمانى ، كيف تمكنت من أن تنمو خلال الحرب العالمية الثانية ، وأن تتبع سياسة خاصة بها ، بعد أن تحررت بصورة أكبر من النفوذ الغربى ؟ فهذا ما سنتناوله بالبحث فى جزء قادم من هذا الكتاب .

افغانستان :

فى الجنوب الغربى من جبال البامير الروسية الموحشة التى تغطيها الثلوج (أعلى قمة فيها ٠٠٠و٢٠ قدم) تقع افغانستان مباشرة ، وهى منطقة من الاراضى الجبلية الوعرة يتراوح ارتفاعها

عن مستوى سطح البحر ، الذى يبعد عنها كثيرا بين ١٦٠٠ قدم و ٨٠٠٠ قدم ، وأغلب أجزائها صلده وصخرية ، وفى الصيف تتعرض لحرارة الشمس المحرقة ، وفى الشتاء جوها بارد وتغطيها الثلوج • وتوجد فيها مناطق أكثر اعتدالا تتوفر فيها المياه بكميات أكبر ، وخاصة عند المنحدرات الشمالية والجنوبية الغربية لجبال هندو كوشى • وقد قام الفلاحون الافغانيون البدائيون بتحويل هذه المناطق الى وديان تنتشر فيها الحدائق وحقول القمح وأشجار اللوز والمشمش ذات الزهور البيضاء والحمراء ، وغابات من نخيل البلح ، وقطع صغيرة من الارض يزرع فيها الشعير والذرة • ان حوالى ٢٠ فى المائة من مساحة الاراضى تعتبر أراضى منزرعة • وأفغانستان تعد بمثابة حصن بنته الطبيعة ، فرغم أن لها حدودا مشتركة مع الدول الثلاثة التى تعد أشد دول العالم ازدحاما بالسكان ـ وهى الصين والهند وروسيا ـ ومع باكستان وايران أيضا ، فان أفغانستان تعتبر آخر دولة فى آسيا يمكن النفاذ اليها بسهولة ، فقد يمكن دخول أفغانستان بالسيارة من جمهوريتى تركمانستان وأوزبكستان ، أما من ناحية الشرق فلا يمكن الوصول اليها الا عن طريق بضعة ممرات جبلية موحشة مثل ممر خيبر التاريخى الذى يربط بين كابل وبشاور • وفى داخل أفغانستان تعتبر حالة المواصلات أسوأ من مثيلاتها فى المناطق الاسيوية الاخرى • ولا يوجد فيها خطوط للسكك الحديدية فيما عدا خط حديدى قديم علاه الصدأ يبلغ طوله خمسة أميال ، وقد أنشأ الالمان هذا الخط • وتوجد طرق حديثة قليلة ـ يبلغ طولها اقل من ٢٠٠٠ ميل ـ تربط بين المدن الكبرى • وتعتبر الجمال السريعة والخيول الصغيرة والحمير هى وسائل المواصلات الوحيدة غالبا

بالنسبة لرجال القبائل شبه الرحل الذين يتولون تربية الماشية ؛ وهم يشكلون ، على وجه التحديد ، ثلث مجموع السكان وتعتبر أغنامهم من المظاهر المميزة للمناظر الطبيعية فى أفغانستان •

تلك هى صورة أفغانستان اليوم ، انها أرض لم يستطع التاريخ أن يغيرها الا بالكاد ، من حيث المظهر الخارجى على الاقل • وفى عام ١٩١٩ كانت الغالبيه العظمى من سكان أفغانستان تعيش فى نفس الاوضاع التى كانت تعيش فيها فى العصور الوسطى • ولقد تحدثنا من قبل عن أمان‌الله خان (ولد عام ١٨٩٢) الذى ينتمى الى أسرة باراكساى ، وكيف أصبح أميرا (١٩١٩ - ١٩٢٩) • ويتفق الخبراء على أنه عندما حصل أمان‌الله على لقب ملك «باديشاه» عام ١٩٢٦ فان زوجته الجميلة ثريا ، كان لها مثله يد فى ذلك •. واننا نذكر ذلك ببساطة باعتباره أحد الامثلة العديدة على مدى التأثير الذى تحدثه الزوجات الشرقيات على أزواجهن عادة بسحرهن وفطنتهن ، رغم أن كل المظاهر تشير الى عكس ذلك ، وبالتالى يؤثرن فى أوطانهن وتاريخ بلادهن •

ومهما يكن من أمر فقد قام أمان‌الله حوالى عام ١٩٢٠ ، وهى الفترة التى كانت فيها منطقة جنوب غربى آسيا الاسلامية تقاوم النفوذ البريطانى والغربى ، باعلان استقلال أفغانستان • وقد فشلت المحاولة التى قام بها لغزو الهند البريطانية بعد بدء تلك المحاولة بعدة أسابيع • وكان رد الفعل من جانب بريطانيا على نطاق واسع • ولما كانت لندن مصممة على العمل لمنع توسع البلاشفة كما كان شأنها فى ايران ، فقد وافقت (فى معاهدة روالبندى فى ٨ أغسطس عام ١٩١٩) ولاول مرة فى تاريخ العلاقات الانجليزية

الافغانية على الاعتراف بسيادة أفغانستان على أراضيها وحقها فى أن تتولى شئونها الخارجية بنفسها .

وقد ظلت المستعمرات البريطانية على الحدود الجنوبية والشرقية لافغانستان تشكل تهديدا بالنسبة لها بطبيعة الحال ، وقد بذل أمان‌الله أول الامر جهدا كبيرا للاتصال بالدول المعادية لبريطانيا فى محاولة لاستكمال وزنه وقوته . وكانت أول ثمرة حققتها جهوده هى عقد معاهدة الصداقة الروسية - الافغانية فى ٢٨ فبراير عام ١٩٢١ ، وقد وسع نطاقها بمعاهدة الحياد وعدم الاعتداء التى وقعت عام ١٩٢٦ ، وفى نفس الفترة أنشىء الحلف الدفاعى الهجومى بين روسيا وايران (٢٦ فبراير ١٩٢١) ووقعت المعاهدة الروسية - التركية عام ١٩٢٥ ، وقد تحدثنا عنها قبل ذلك . أما الاحلاف التركية - الافغانية فيرجع تاريخها الى عامى ١٩٢١ و ١٩٢٨ ، والاحلاف الايرانية - الافغانية فيرجع تاريخها الى عامى ١٩٢١ و ١٩٢٧ .»

ولم يحاول امان الله ان يحطم اسوار العزلة التى يعيش فيها شعبه منذ العصور الوسطى ، وان يتيح للشعب الاستفادة من الاكتشافات ووسائل التقدم الحديثة ، الا بعد أن شعر بانه قد أمن نفسه من الخارج . وان اصدار دستور على الطراز التركى « ابريل ١٩٢٣ » يعد بمثابة نقطة تحول رغم ان الدستور نفسه لا تربطه بالديمقراطية اية صلة . ولم يكن لدى البرلمان الوليد ، الذى كان نصف اعضائه معينون ، بينما النصف الآخر حصل على العضوية بالانتخاب غير المباشر ، لم يكن لدى هذا البرلمان ما يقوله الا القليل جدا . وكان الزعيم الحقيقى للبلاد هو الامير الموهوب .» ولم يضع أمان الله اى وقت ، وفرض على البلاد بالقوة ، من مقره

فى كابل ، آصلاحات واسعة النطاق مماثلة للاصلاحات التى قام بها كمال أتاتورك . وحضر المهندسون الالمان والفرنسيون فوق ظهر الجمال الى هرات وقندهار وكابل لكى يقوموا بمد الطرق وخطوط السكك الحديدية وانشاء المحطات اللاسلكية . وقد سعى أمان لله الى تحقيق الاهداف التالية بضربة واحدة : تجنيد وتنظيم جيش حديث ، وتحرير المرأة ، وتحويل البلد القائم على نظم اقطاعية الى دولة واحدة لها كيانها القومى ، وازالة العقبات الكثيرة التى تعترض الطريق أمام ادخال النظم الحديثة فى البلاد ، وقمع العناصر التى يخشى صدور رد فعل عنها ، مثل « الملات » الكثيرين المعادين للثورة . الا أن ما نجح لينين وستالين فى تحقيقه فى روسيا وما نجح أتاتورك فى تحقيقه فى تركيا ، وبمعنى آخر ما قاموا به من « حشد » لكل مكاسب الثورة الفرنسية والثورة الصناعية فى فترة ربع قرن من الزمن ، لم يكن فى الامكان تحقيقه فى أفغانستان ».

وكانت الحكايات التى من بينها حكاية الفلاحة المخطوبة ، التى كانت تعيش فى احدى مناطق المنحدرات الجبلية الشمالية الشرقية ، والتى رفضت قبول الزوج الذى اختارته لها أسرتها فقتلها أبوها ، هذه الحكاية كانت تروى فى القرى الافغانية باعتبارها أمثلة على المعارضة ضد اصلاحات أمان الله . لقد كانت أفغانستان تبدو مهيأة ، من الناحية النظرية ، لعملية التغريب الثورية ، الا أن الظروف التى تسمح بتغريب الشعب ، لم تكن ، من الناحية الموضوعية موجودة ، كما اتضح فى ذلك الوقت . فالعقلية الرأسمالية التى كان يعيش بها الفلاحون والرعاة وهم فى عزلتهم ،

وكذلك تقسيم الشعب الى عشائر والى ضياع اقطاعية صغيرة تفتقر الى الاستقرار ، كل هذا أحدث أثرا سلبيا .

فى عام ١٩٢٨ انفجر حكم « القيصر بطرس » الافغانى كما تنفجر الفقاعة . وكان السبب غير المباشر لهذا الانفجار هو رحلات الملك الى الخارج ، فقد زار بومباى والقاهرة وروما وباريس وبرلين ولندن وموسكو ، وكانت رحلاته بمثابة رمز لرغبته فى جعل وطنه المعزول فى بقعة نائية يسير فى ركب الاحداث الدولية . وعندما عاد الملك الى كابل هو والملكة فى الصيف ، دفعه ما لمسه من تأخر وطنه الى اتخاذ اجراءات متحررة أكثر من اللازم . فمشروعه الخاص باجراء انتخابات مباشرة كان بمثابة هجوم مباشر على وضع الرؤساء الاقطاعيين . وفى نوفمبر انفجرت المعارضة الرجعية فى صورة عداء عام ضد الثورة وتخلى امان الله عن عرشه (١٤ يناير ١٩٢٩) .

وخلفه عناية الله ، شقيقه الذى يقل عنه حيوية الى حد كبير . وهو رجل رقيق ولا يهمه كثيرا ما يحدث فى البلاد ، ولم تكن لديه سوى مقدرة ضئيلة على انجاز أى شىء . وفى يناير عام ١٩٢٩ قام باكشا ــ ابى ــ ساجاد ، أى أحد زعماء الفلاحين ، باحتلال كابل وتوج نفسه باسم حبيب الله غازى وتخلص من كل الذين يحتمل أن يطالبوا بالعرش فيما عدا شخص واحد . ففى مارس عاد من أوروبا محمد نادر خان (١٨٨٠ ــ ١٩٣٣) قائد الجيش الافغانى السابق وسفير افغانستان السابق فى باريس (١٩٢٤ ــ ١٩٢) واستطاع هذا الدبلوماسى والضابط ، الذى يتمتع بفطنة غير عادية ، أن يجمع جيشه الصغير الكفء ، وأن يستولى على كابل (٨ أكتوبر ١٩٢٩) وفى ١٦ أكتوبر أصبح ملكا

باسم محمد نادر شاه (١٩٢٩ - ١٩٣٣) . وبذلك انتهى عهد أسرة باراكساى التى حكمت أفغانستان منذ عام ١٩٣٥ . والقى القبض على حبيب الله حيث أعدم شنقا . وفر أمان الله الى روما ، حيث اعتقله رجال المخابرات البريطانيون فى صيف عام ١٩٤٤، بتهمة القيام بنشاط مؤيد لألمانيا .

وقد وقع حدث هام فى أعقاب سقوط أمان الله وهو انشاء جمهورية تاجيكستان السوفيتية ، على الحدود الشمالية لافغانستان بين التبت وسمرقند ، وهى الجمهورية السوفييتية السابقة . ولقد كانت حكومة موسكو متأكدة من أن الحركة المضادة للثورة فى كابل هى من صنع عملاء بريطانيا - ولم تكن حكومة موسكو وحدها فى هذا الاعتقاد - وكاجراء مضاد أعطى ستالين اقليم تاجيك دستورا يجعل منه جمهورية سوفييتية داخل الاتحاد السوفييتى (٥ ديسمبر ١٩٢٩) ، وبذلك نجد أن وضع اقليم تاجيك لم يختلف من الناحية النظرية مثلا عن وضع أوكرانيا . ولعبت الافكار الكامنة وراء الدعاية السوفييتية فى آسيا دورها ، وكان ٢٠ فى المائة من سكان أفغانستان تاجيكيين .

ولم يكن محمد نادر كما يبدو يكن قدرا كبيرا من المودة نحو البلاشفة ، ولكنه كان يدرك حقيقة عصره ووضع وطنه المناضل . لقد كان يعرف أوروبا جيدا ، ويعرف افغانستان ايضا ، وقد واصل من جديد الحملة التى كان قد بداها أمان الله لادخال النظم الحديثة فى البلاد ، الا أنه اتبع أسلوبا اقل اثارة للسخط من الاسلوب الذى اتبعه أمان الله . ولم يؤد حادث اغتياله فى كابل يوم ٨ نوفمبر عام ١٩٣٣ الى حدوث أى اضطراب سياسى .

وخلال عهد ابنه محمد ظاهر شاه (ولد عام ١٩١٤) استمرت افغانستان فى النمو والنضوج ، رغم أن المظاهر الخارجية لذلك كانت قليلة نسبيا . وان الاحداث التى وقعت فى افغانستان فى الفترة ما بين عامى ١٩٢٩ و ١٩٤١ يمكن تقسيمها الى ثلاث مجموعات تتلخص فيما يلى :

١ ـ ادخال مزيد من النظم الديمقراطية فى البلاد والمضى فى اضعاف نفوذ « الملات » والنبلاء أصحاب الاراضى مع الاستعانة بدستور عام ١٩٣٢ وغيره من العوامل الاخرى فى هذا المجال . ولقد كان هذا الدستور يماثل الى حد كبير دستور عام ١٩٢٣ فى تكوينه . والآن بدأ البورجوازيون ذوى العقلية التقدمية وجانب من المزارعين يلعبون دورا محددا فى الميدانين التشريعى والحكومى ، رغم أن المزارعين كانوا يقومون بهذا الدور بصورة غير مباشرة .

٢ ـ تقوية البلاد باعتبارها دولة آسيوية ذات سيادة على أراضيها ، وتغريب الجيش ، استخدام الضباط الاتراك كمدربين ، وانشاء كلية عسكرية فى كابل (١٩٣٢) .

٣ ـ التمسك بحلف سعد اباد ، وهو الحلف الدفاعى الذى اشرنا اليه من قبل وقد اقيم بين تركيا والعراق وايران وافغانستان عام ١٩٣٧ .

وكان استدعاء الفنيين الاجانب ، من النواحى الهامة فى سياسة افغانستان فى تلك الفترة ، مثلها فى ذلك مثل الدول الآسيوية الاخرى المستقلة . وقد استطاع المهندسون الالمان والروس والبريطانيون وحتى المهندسين اليابانيين أن ينجزوا اعمالا

كثيرة يفخرون بها . الا ان منح « شركة التنقيب عن البترول في الاراضي الداخليـه » وهي شركة امريكية مقرهـا الرئيسي في نيويورك ، امتيازا للتنقيب عن البترول يشـير الى ان الاستقلال الاقتصادي لافغانستان لم يكن قد تحقق بعد . وان مشكلة ادخال النظم الحديثة في الدول الاسيويه كافغانستان مثلا ، وخاصـة في الميدان الاقتصادي ، لا تتمثل كثيرا في موقف العناد والتشدد من جانب الطبقات الحاكمة المهدده ، او في الافتقار الى الفنيـين والمثقفين ، بقدر ما تتمثل في كيفية الحصول على راس المال ، الذي تعتبر البلاد في أمس الحاجة اليه ، وذلك دون أن تتيح للراسمالية الاجنبية ، وخاصة الراسمالية القديمة ، ان تتدخل في البـلاد بنشاط زائد عن الحد . ان الراسمالية الامريكية تختلف قليـلا عن الراسمالية الاستعمارية الاوروبية ، الا ان العلاقة بين الدول الصناعية الفنية والدول الزراعية البدائية تظل ، بصورة أساسية، متماثلة في كل مكان . وان تدفق راس المـال الروسي والفنيين الروس لمناطق معينة في آسيا المعاصره ، هو بطبيعة الحال ، ومن حيث المبدأ على الاقل ، السبب في انشاء ارتباطات سياسية معينة، الا أنه يوجد فارق ملحوظ ينبني على الحقيقة الواقعة وهي انه في روسيا لا تلعب الشركات الخاصة اي دور .

ان ثورة عام ١٩٢٩ ضد « الملك الاشتراكي !! » والخطـط البريطانية التي تستهدف استخدام افغانستان كدولة محايدة بين المستعمرات البريطانية في جنوب آسيا والثورة الروسية ، كانت بمثابة عقبات ضخمة امام تطوير افغانستان الى دولة حديثـة . ان عدد المصانع في افغانستان ما زال ضئيلا جدا ، والمصـنع الوحيد الذي يمتلك آلات امريكية جديدة هو مصنع نسيج القطن

الحديث فى منطقة بول - ابى - كومرى ، الى الشمال الشرقى من كابل ».

وما زال اربعة أخماس السكان أميين . كما أن قوة « الملات » المحافظين وقوة الشريعة الاسلامية ما زالتا ، بصفة عامة ، على حالهما دون أن تتعرضا لاى تزعزع ، وهو وضع مخالف للوضع القائم فى تركيا وايران والاتحاد السوفييتى . وما زالت اراضى افغانستان تضم فى باطنها الفحم والنحاس والبترول دون أن تستغل هذه الثروات ، ولا يعلم أحد ماذا يوجد ايضا فى باطن الاراضى الافغانية . وان خطوط المواصلات والطرق التى أقيمت على النظام الغربى تعتبر اكبر من مجرد دليل على التقدم الحضارى فهى تشكل تهديدا خطيرا للثقافة القومية الآسيوية القديمة وغيرها من الثقافات - الا أن التوسع فى انشاء هذه الخطوط ومد الطرق يعد مقياسا على مدى ما يلغه بلد ما فى ميدان التحضر . وفىالوقت الحاضر يوجد فى أفغانستان تليفون واحد لكل اربعة آلاف شخص وجهاز راديو واحد لكـــل خمسة آلاف شخص . ولو قرنا هذه الارقام بالارقام الموجودة فى مصر والعراق وهولندة نجد ان فى مصر جهاز تليفون لكل ٢٠٠ شخص وجهاز راديو لكل ١٧٠ شخص ، وفى العراق جهاز تليفون لكل ٣٥٠ شخص وجهاز راديو لكل ١٠٠٠ شخص ، وفى هولندة جهاز تليفون لكل ١٤ شخصا وجهاز راديو لكل ٨ اشخاص .

وعلى الرغم من ان أراضى افغانستان الجبلية ذات السحر الخيالى ما زالت متأخرة الى حد كبير عن الدول الاسلامية الاخرى فى ميدان التنمية ، فان وسائل التكنولوجيا الحديثة وأفكار عصر الآلة تنتشر بصورة متزايدة وسط مزارعى القطن وعمال المصانع

فى المنطقة الممتدة بين هرات وكابل . وان التطور العظيـــم الذى يحدث وراء الحدود فى باكستان والهنــــد والصين والاتحـــاد السوفييتى وايران ، له ايضا تأثير اكبر فى دفع افغانستان قدما فى الطريق الذى تسلكه شعوب آسيا .

الجزء الرابع

اصداء الثورة

يصدر الخميس ٢٨ مايو سنة ١٩٦٤

كتب صدرت عن سلسلة كتاب التحرير السياسى

اولا : سقوط الامبراطورية

تاليف ادريس كوكس

ترجمة : محمد رشاد خميس

ثانيا : آسيا المعاصرة

يقظة العملاق

الجزء الأول

تاليف البروفسور رومين

ترجمة : يوسف صبرى ـ عاطف الغمرى

ثالثا : آسيا المعاصرة

افول الغرب

الجزء الثانى

تاليف : البروفسور رومين

ترجمة : احمد عادل

يطلب من دار التحرير للطبع والنشر
القاهرة

كتب قادمة

الرأسـمالية
أمس واليـوم

أرض الخـطايا
فى جنوب افريقيـا

تجـربة الثـورة
فى الجـزائر

الصين الجديدة

ثـورة غينيـا
والتقـدم الاجتماعى

كفـاح السـود
ضد التفرقة فى أمريكا

ريـاح الثـورة
فى أمريكا الجنوبية

تطور الفكرة الاشتراكية

القـاموس السياسى

الثمن ١٠ قروش وخمسة قروش لقراء الجمهورية و

مطابع شركة الاعلانات الشرقية